

# الفصل الثاني عشر

## أسبانيا

١٣٠٠ - ١٥١٧

### ١ - الشهيد الأسباني : ١٣٠٠ - ١٤٦٩

لقد وجدت أسبانيا في جبالها وقايتها ومأساتها في وقت واحد : فقد منحتها أمناً نسبياً من الغزو الخارجي ، ولكنها عوقت تقدمها الاقتصادي ووحدها السياسية وإسهامها في الفكر الأوربي . وقد عاش في ركن صغير من الشمال الغربي شعب نصف بدوي من الباسك وكانوا ينتقلون بأغنامهم من السهول إلى التلال ثم يهبطون إلى السهول مرة أخرى تبعاً لتقلبات الفصول . ومع أن كثيرين من الباسك كانوا رقيق أرض ، إلا أنهم جميعاً زعموا نبل المحتد ، وحكمت ولايتهم الثلاث نفسها تحت السيادة الوردية لقشتالة أو ناغار . وظلت ناغار مملكة قائمة برأسها ، حتى ضم فرديناند الكاثوليكي قسمها الجنوبي إلى قشتالة ( ١٥٥٥ ) بينما أصبحت البقية الباقية منها إقطاعاً ملكياً تابعاً لفرنسا . وتملكت أراجون سردينيا منذ عام ١٣٢٦ وتبعتها جزر البليار عام ١٣٥٤ . وصقلية عام ٤٤٠٩ . وزادت ثروة أراجون نفسها بفضل صناعة وتجارة بانسية وطركونه وسراقسطة وبرشلونة - وهي عاصمة ولاية قطلونية ضمن مملكة أراجون . وكانت قشتالة أقوى الممالك الأسبانية وأوسعها رقعة ، وقد حكمت المدن الآهله أفيديو وليون وبرجس وبلد الوليد وسلامنكا وقرطبة وإشبيلية وطليلة ،

وهي عاصمتها ، ولعب ملوكها أدوارهم أمام أكبر عدد من النظارة وفي سبيل أعظم المخاطر في أسبانيا .

وأصلح ألفونسو الحادى عشر ( ١٣١٢ - ٥٠ ) قوانين قشتالة ومحاكمها وحول منافسات النبلاء إلى حروب تشن على المسلمين ، وشجع الأدب والفن ، وكافأ نفسه بخليعة نجبية . ولقد حملت له زوجته ابناً شرعياً واحداً ، نشأ في ظروف غامضة وإهمال وحقد وأصبح فيما بعد بدرو الغشوم ومن الواضح أن اعتلاءه على العرش ولما يناهز الخامسة عشرة ( ١٣٥٠ ) جلب اليأس لأبناء الفونسو التسعة غير الشرعيين ، فقد أقصوا جميعاً عن البلاد ، وأعدمت أمهم ليونورا ده جزمان ، ولما جاءت عروسه الملكية بلانش البوربونيه من فرنسا من تلقاء نفسها ، تزوجها وأنفق ليلتين معها ثم أمر أن يدس لها السم متهماً إياها بالتآمر ( ١٣٦١ ) وتزوج عشيقته مارياديه باديبلا ، التي تؤكد الأسطورة أن جمالها بلغ من الخلابه حداً ، جعل فرسان البلاط يشربون بنشوة ماء اغتسلها . وكان بدرو محبوباً في الطبقات الدنيا التي أيدته إلى النهاية المريرة ، ولكن المحاولات المتكررة من اخوته غير الأشقاء لإقصائه عن العرش ، قد دفعته إلى مجموعة من الدسائس والقتل وانتهاك الحرمات ، تقف في وجه كل حكاية وتلطخها بالدم . واستطاع هنرى التراستامارى ، أكبر أبناء ليونورا أن ينظم ثورة موفقة ويقتل بدرو بيديه ويصبح هنرى الثانى ملك قشتالة ( ١٣٦٩ ) .

ولكننا نعلم الأمم إذا حكمنا عليها من ملوكها ، لأنهم اتفقوا مع مكيا فى فى أن الأخلاق لم تجعل للملوك . وبيننا نجد الحكام يتلهون بالقتل الفردى أو المتخذ صفة القومية ، فإن الشعب الذى بلغ عدده عشرة ملايين عام ١٤٥٠ ، هو الذى أنشأ حضارة اسبانيا ، ومع أنهم كانوا يعتزون بنقاء أرومتهم إلا أنهم كانوا مزيجاً غير ثابت من الكلت والفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والقوط الغربيين والوندال والعرب والبربر واليهود ، وعند سفتح الكيان

الاجتماعى قليل من العبيد ، وطبقة من الفلاحين ظلوا رقيق أرض إلى عام ١٤٧١ ، وفوقهم العمال اليدويون والصناع وتجار المدن ، وفوق أولئك وهؤلاء الفرسان (caballeros) فى طبقات رفيعة من الشرف ، والنبلاء الذين يعتمدون على الملك ( أبناء الأسر العريقة bidalgos ) والنبلاء المستقلون (proceres) وإلى جانب هؤلاء المدنيين طبقات الكهنوت تبدأ من قساوسة الأبروشيات فالأساقفة ورؤساء الأديرة وتنتهى برؤساء الأساقفة والكرادلة . ولكل مدينة مجلسها البلدى (conseijo) وهى ترسل مندوبين عنها ، ينضمون إلى النبلاء والمطارنة فى المجالس الإقليمية والقومية ، والأصل النظرى أن مراسيم الملوك تتطلب موافقة هذه المجالس لتصبح قوانين . ونظمت الأجور وشروط العمل والأسعار ومعدل الفائدة على الأموال ، المجالس البلدية أو النقابات . وتعثرت التجارة بسبب الاحتكارات الملكية وبالمكوس الحكومية التى تفرضها الدولة أو الأقاليم على الواردات والصادرات وتنوع الموازين والمقاييس وبالعملات المتدهورة وقطاع الطرق وقرصان البحر الأبيض المتوسط ورفض رجال الدين للحساب واضطهاد المسلمين - الذين غنوا معظم الصناعة والتجارة بالقوة البشرية - واليهود ، الذين كانوا يدبرون شئون المال . وافتتح مصرف حكومى فى برشلونة ( ١٤٠١ ) بضمان حكومى لودائع المصرف ، وصدرت صكوك للتعامل ، وأنشئ تأمين بحرى قرابة عام ١٤٣٥ .

ولما كان الإسبان يجمعون فى أرومتهم بين الأصول السامية والأصول المناهضة للسامية ، لذلك احتفظوا بحرارة إفريقيًا فى دماهم ، وكانوا يميلون مثلهم فى ذلك مثل البربر ، إلى الوداعة والعنف فى القول والعمل فيهم سورة وفى عقولهم تطلع وفضول ، وهم جد أغرار ويؤمنون بالخرافة إلى حد مخيف واحتفظوا باستقلال للروح وكرامة للشجاعة حتى فى النكبات والفقر . كانوا يحبون اقتناء المال ولقد فطروا على ذلك ، ولكنهم لم يحتقروا الفقراء ولم

يلعبون نعال الأغنياء . واحتقروا العمل وتقمعوا عنه ، بيد أنهم احتملوا الشدائد برياطة جأش ، كانوا كسالى ومع ذلك غزوا نصف العالم الجديد . وظمثوا إلى المغامرة والعظمة والفروسية ، وكانوا يستمتعون بالمخاطر ولو كانت بالتفويض فحسب ، فإن مصارعة الثيران ، وهى من آثار كريت وروما كانت قد أصبحت لعبة قومية تقليدية رسمية زاخرة بالألوان محكمة ، تعلم الشجاعة والبراعة الفتية وسرعة الحاطر . ولكن الإسبان تناولوا مباحثهم بشىء من الكآبة ، وهم يشبهون الإنجليز المحدثين ( وعلى خلاف إنجليز عصر اليزابث ) ولقد أضفى جذب التربة وظلال المنحدرات الجبلية على نفوسهم كآبة جارفة ، وكانت أخلاقهم جادة مستقيمة كاملة وهى أحسن كثيراً من المحافظة على صحة أبدانهم ، وكان كل إسباني مهذباً ، بيد أن التليين منهم ، كانوا مفتولى الأجسام ، وازدهرت صور ألعاب من الفروسية وسط القاذورات التى اكتنفت الجماهير . وأصبحت مسألة الشرف عقيدة ، وكانت النساء فى إسبانيا ربات وسجينات أما زى الطبقات العليا فكان بسيطاً فى أيام الأسبوع ويتحول إلى الأبهة أيام الآحاد والأعياد بالحرير الزاهى والقباء المكشكش والملون المحرم والذهب . وكلف الرجال بالعطور والكعوب العالية ، ولم يتنع النساء بفتنتهن الطبيعية فخابن ألباب الرجال بالبنيفة والمخرمات والخمار يخفى وجوههن واتخذت المطاردة الجنسية آلاف الأشكال وتنكرت فى آلاف الصور ، وجاهدت صنوف الإرهاب الدينى والقوانين الصارمة ومسائل الشرف ، فى الحد من تلك المطاردة ولكن فينوس انتصرت على الجميع ، وزادت خصوبة النساء على غلة الأرض .

وكانت الكنيسة فى إسبانيا حليفاً لا ينفصل عن الدولة ، ولم تدخل بابا روما فى حسابها إلا قليلاً ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية حتى عندما أعطتها اسكندر السادس الذى لا يعترف بالإصلاح ، وفى سنة ١٥١٣ حرم الكاردينال اكزيمينس نشر صكوك الغفران التى قدمها

يوليوس الثاني في إسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عد الملك رئيساً للكنيسة الإسبانية ، ولم ينتظر فرديناند في هذا الشأن ، هنرى الثامن ليعلمه ، ولم تكن إسبانيا في حاجة إلى إصلاح ديني يجعل الكنيسة والدولة أو الدين والقومية شيئاً واحداً ، وحصلت الكنيسة على امتيازات مادية كجزء من هذا الاتفاق غير المكتوب في ظل دولة تعتمد عليها اعتماداً واعياً في توطيد النظام الأخلاقي والاستقرار الاجتماعي والعمل على قياد الشعب لها . ولم يكن موظفوها ، حتى الطبقات الدنيا منهم ، يخضعون إلا للمحاكم الكهنوتية . وامتلكت مساحات كبيرة من الأرض ، يفلحها مستأجرون لها ، وكانت تتسلم عشر غلة العقارات الأخرى ، ولكنها كانت تدفع ثلث هذا العشر للخزانة ، ولقد أضعفت من الضرائب علاوة على ذلك . ولعلها كانت أغنى إذا قيست إلى الدولة منها في أي بلد آخر باستثناء إيطاليا . ومن الواضح أن أخلاق الإكايروس ونظام الأديرة ، كانت فوق مستوى القرون الوسطى ، بيد أن اتخاذ الحظايا قد شاع وسمح به كما حدث في غير إسبانيا واستمر الزهد في إسبانيا بينما أخذ ينقرض شمالي جبال البرانس ؛ بل إن العشاق كانوا يجلدون أنفسهم ليذيبوا مقاومة ما في السيدات من حنان وخفر أو ليحصلوا على شيء من الوجد الماسوشي (١) .

وكان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك ، لأن عليهم أن ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح ، ولقد عرض الصراع لتخليص غرناطة على أنه حرب في سبيل العقيدة المقدسة ، فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال ، الأغنياء منهم والفقراء ، أيام الأعياد في الطرقات صامتين في حزن أو مرددين الأناشيد ، وأمامهم تماثيل كبيرة تجسم العذراء أو أحد القديسين . واعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأن العالم الروحي هو بيئتهم الحقيقية وموطنهم الأبدي . والحياة الدنيا إلى جانبه

(١) الماسوشية ضرب من الانحراف الجنسي يقوم على إيلام البدن .

إنما هي شروحم مؤقت . وكرهوا الخراطقة باعتبارهم خائنين للوحدة والمبدأ القوميين ، ولا اعتراض لهم على إحراقهم ، وهذا هو أقل ما يستطيعون أن يبذلوه من أجل إلههم الذي انتهكت حرمة ولم تنعم الطبقات الدنيا بشيء من التعليم المدرسي إلا قليلا وهو ديني فحسب . ولما وجد كورتز القوى بين المكسيكيين الوثنيين ، شعيرة تشبه القربان المسيحي - شك بأن الشيطان هو الذي علمهم إياها لكي يضلل الفاتحين .

وشجع على قوة انتشار الكاثوليكية في أسبانيا تلك المنافسة الاقتصادية بين الأسبان وبين المسلمين واليهود ، الذين كانوا يؤلفون عشر عدد السكان في أسبانيا المسيحية . ومن الأمور السيئة في نظرهم أن يحتل المسلمون غرناطة الخصبية ، وأكثر من هذا مضايقة لهم أولئك المدجنون - أي المسلمين الذين لم يتنصروا ، الذين عاشوا بين الأسبان المسيحيين والذين أدت براعتهم في التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعباداً بدائياً . أما الأسبان اليهود فلم يصفح عنهم قط . ولقد اضطهدتهم أسبانيا المسيحية مدى ألف سنة : فقد أخضعوهم لضرائب مهنية وقروض مغتصبة ولمصادرة الأموال والاعتقال والتعميد الإجباري ، وأرغموهم على الاستماع إلى العظات المسيحية ؛ وحرصوهم حتى في معابدهم أحياناً على التنصر ، بينما جعل القانون تهود المسيحي جريمة عقوبتها الإعدام . ودعوا أو ألزموا على الاشتراك في مناظرات مع علماء الدين المسيحي ، وهم فيها بين اثنتين إما أن تحقق بهم هزيمة فاضحة أو يحصلون على انتصار مخفوف بالمكارة . وأمروا هم والموديجار عدة مرات أن يرتدوا شارة مميزة ، وكانت في العادة دائرة حمراء توضع على الكتف في أرديتهم وحرّم على اليهود أن يستأجروا خادماً مسيحياً ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المرضى المسيحيين ، ورجلهم الذين يعاشرون امرأة مسيحية بقتلون .

ولقد حرض راهب فرنسيسكاني عام ١٣٢٨ في عظاته بمدينة ستلا من

أعمال ناقار ، المسيحيين أن يعملوا القتل في خمسة آلاف يهودى وأن يحرقوا منازلهم ، وفي عام ١٣٩١ أثارت عظات فرنان مارتينيز الجماهير في كل مركز كبير بأسبانيا ، أن يقتلوا كل من يحدونه من اليهود الذين يرفضون التحول إلى المسيحية . وفي سنة ١٤١٠ تحركت بلد الوليد وغيرها من المدن ببلاغة فيسنت فرر الذى يشبه القديس المتعصب ، فأمرت أن يحصر اليهود والمسلمون أنفسهم في أحياء معينة - جوديريا أو الباما - تغلق أبوابها من غروب الشمس إلى شروقها وربما كانت هذه العزلة من أجل حمايتهم .

واستغل اليهود كل فرصة للتطور بما اتسموا به من الصبر والعمل والذكاء فتكاثروا وازدهرت أحوالهم تحت وطأة هذه العوائق . وأحب بعض ملوك قشتالة ، أمثال الفونسو الحادى عشر وبدرو الغشوم ، اليهود وعينوا النابيين منهم في المناصب الحكومية الرفيعة . وجعل الفونسو دون يوسف الأسيجى وزيراً للمالية ، واختار يهودياً آخر هو يوسف ابن وقار طبيباً خاصاً له ، فأساء استعمال منصبيهما ، واتهما بالتآمر فسجننا وماتا في السجن . وتكررت الحادثة مع صمويل يوسف أبى لافيسه فقد عين قواما على خزانة الدولة في عهد بدرو ؛ فجمع ثروة طائلة ؛ فحكم الملك بقتله . وكان صمويل قد شيد قبل ذلك بثلاثة أعوام ( ١٣٥٧ ) في مدينة طليطلة معبداً يهودياً جميلاً على بساطته ، على الطراز القمايدى ، وهو الذى حوله فرديناند إلى الكنيسة المسيحية « الترنسيتو » وتحافظ الحكومة عليها اليوم باعتبارها أثراً من الآثار العبرية - الإسلامية في أسبانيا وكانت حماية بدرو لليهود من سوء طالعهم ، ذلك لأن هنرى أمير ترانستامارا - عندما عزله عن الملك ، أعمل الجنود المنتصرون السيف في ألف ومائتى يهودى ( طليطلة ١٣٥٣ ) ، وتبع ذلك مذابح أسوأ ، عندما أحضر هنرى

إلى اسبانيا « الصحاب الأحرار » ، الذين جمعهم دى جيكلان من  
أوشاب فرنسا . .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد على الفرع من النهب والقتل ،  
فلما أصبحوا مسيحيين من الناحية الشرعية استطاع هؤلاء المنتصرون أن  
يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية ، وفي المهن بل وفي الكنيسة ذاتها  
وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت وآخرون من مستشارى الملوك .  
وأكسبتهم مواهبهم المالية نجاحاً يثير الحسد ، فى جمع الدخل القومى  
وتدبيره . وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطى ، وجعل  
بعضهم نجاحه عدوانياً واضحاً ، ووصم الكاثوليك الغضاب ، هؤلاء  
المنتصرين بهذا الاسم الفظيع « حلوف العرب المورسكو » ( marranos )  
ومع ذلك فإن الأسر المسيحية التى كانت عراقية نسبياً أكثر من مالها ،  
أوالتي كانت تحترم القدرة من الناحية العملية ، قبلت الإصهار إليهم . وبهذه  
الطريقة ساط الشعب الأسباني وبخاصة طبقاته العليا ، الدم اليهودى بصورة  
مادية ملموسة . وكان لفرديناند الكاثوليكى وتوركبادا قاضى محكمة التفتيش  
أسلاف من اليهود . وأطلق البابا بول الرابع على خصمه الذى  
يحاربه فيليب الثانى ، وعلى الأسبان « أنهم بذرة لا قيمة لها من اليهود  
والمسلمين » .

## ٢ - غرناطة ( ١٣٠٠ - ١٤٩٢ )

وصف ابن بطوطة موقع غرناطة على أنه لا يضارعه موقع مدينة أخرى  
فى العالم . . . . . وحوها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعى مزهرة  
وكروم ، وفيها مباني جليلة . واسمها العربى غرناطة - ومعناه غير محقق ؟  
ونصرها الفاتحون الأسبان وجعلوه ( جرانادا Granada ) ومعناه الممتلئ  
بالحبوب - ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التى تكثر فيها جاورها . ولم  
يطلق الاسم على المدينة فقط ، وإنما أطلق على إقليم يضم شريش وجيان

والمربة ومالقا وغيرها من المدن ، ويبلغ عدد سكانه نحواً من أربعة ملايين نسمة . ومهضت العاصمة ، التي كانت تضم عشر هؤلاء السكان مثل « برج المراقبة » إلى قمة تسيطر على واد رائع ، يكافئ العناية بالرى والزراعة على أساس علمى بمختصولين فى السنة . وقام على حراسة المدينة من أعدائها المحيطين بها سور عليه ألف برج . واتخذت الأرستقراطية قصوراً رحبة جميلة التصميم ، ورطبت نوافير المياه فى الميادين العامة سعير الشمس ، وعقد السلطان أو الأمير أو الخليفة بلاطه فى أبهاء الحمراء الرحبة .

وكانت الحكومة تأخذ سبع غلة الأرض كلها ، وربما أخذت الطبقة الحاكمة مقداراً مماثلاً كنفقات للإدارة الاقتصادية والقيادة العسكرية ، ووزع الحكام والنبلاء بعض مواردهم على الفنانين والشعراء والدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ، وتولوا جامعة سمخ فيها لعلماء المسيحيين واليهود أن يكونوا أساتذة وعمداء أحياناً . ونقش على أبواب الكلية خمسة أسطر : « دعائم الدنيا أربعة : علم الحكماء ، وعدالة العطاء ، وصلوات الأبرار ، وأقدام الشجعان » . وأسهم النساء فى الحياة الثقافية بحرية ، ونحن نعرف أسماء بعض العالمات فى غرناطة الإسلامية . ولم يمنع التعليم السيدات مع ذلك ، من تحريض رجالهم ، لاعلى العواطف العارمة بل على حب الفروسية ومبارزاتها . وقال أحد ظرفاء العصر : « يميز النساء بدقة ملاحظهن ورشاقة أجسامهن وطول شعورهن وتموجها ، وبياض أسنانهن ، وخفة حركاتهن التى تسر الناظرين . . . وسحر حديثهن ، وعطر أنفاسهن » وكانت النظافة الشخصية ورعاية الصحة العامة أكثر تقدماً منها فى العالم المسيحى المعاصر . وكانت الأزياء والأخلاق رائعة وزينت المباريات الفروسية أو المهرجانات أيام الأعياد . والأخلاقيات سهلة ، ولم تركز أعمال العنف نادرة بيد أن الكرم والشرف الإسلاميين اكتسبا مدح المسيحيين . فقد قال مؤرخ اسباني : « لقد اشتهر سكان غرناطة بأنهم أهل

للثقة ، إلى حد أن كلمتهم كان يعتمد عليها أكثر من اعتمادنا على عمدة  
مكتوب » . وبين هذه التطورات العظيمة اعتصر الترف النامي قوة الأمة  
ودعا التفكك الداخلي إلى الغزو الخارجي .

وما أن دعمت اسبانيا المسيحية ببطء ممالكها وزادت في ثرواتها حتى  
نظرت بعين العداوة الحسود إلى تلك الإمارة المزدهرة المحاصرة التي تحدت  
ديانتها المسيحية بأنها شرك كفور والتي قدمت ثغورها ، منافذ خطيرة  
لدولة من الكفار يضاف إلى ذلك أن تلك الحقول الأندلسية الحصبة قد  
تعوض كثيراً من فدادين الأرض القاحلة في الشمال . ولم تحتفظ غرناطة  
بحريتها ، إلا لأن أسبانيا الكاثوليكية ، قد انقسمت إلى مذاهب  
وملوك . بل إن الإمارة المعززة بنفسها وافقت ( ١٤٥٧ ) على دفع جزية  
سنوية إلى قشتالة . ولما أبي أمير مغامر هو علي أبو الحسن أن يستمر على  
دفع رشوة السلام هذه ( ١٤٦٦ ) لم يجبره هنري الرابع على الدخول في  
الطاعة لأنه كان منغمساً في ملذاته . بيد أن فرديناند وإزابيلا سرعان  
ما أرسلوا الوفود بعد اعتلائهم العرش مطالبة بمواصلة دفع الجزية . فأجاب  
الأمير علي بجرأة مهلكة : « قولوا لملوككم إن ملوك غرناطة الذين دفعوا  
الجزية قد ماتوا وإن سكتنا التي نتعامل بها الآن ليست سوى حذاء لسيوف » .  
ولم يعلم أبو الحسن بأن فرديناند أقوى منه سلاحاً وادعى السخبط على غزوات  
المسيحيين على الحدود فباغت الثغر المسيحي الزهراء واستولى عليها ،  
وساق أهلها جميعاً إلى غرناطة لبيعهم ببيع العبيد ( ١٤٨١ ) فنار  
مركيز فارس بنهب المعقل الإسلامي المنيع الحامة ( ١٤٨٢ ) وهكذا بدأ  
فتح غرناطة .

وعمل الحب على تعقيد الحرب . فقد فتن أبو الحسن بإحدى جواريه  
حتى أن زوجته السلطانة عائشة أثارت الشعب لخلعه عن العرش وتتويج  
ابنها أبي عبد الله ، الذي عرفه الثرييون باسم ( Boabdil ) ( ١٤٨٢ ) فنتر

أبو الحسن إلى مالقة وسار جيش اسباني لمحاصرة هذه المدينة ، وأبيد كله تقريباً في ممرات سلسلة جبال أجاركيه ، على يد فرق لا تزال موالية للأمير المخلوع ، وثار غيرة أبي عبد الله على انتصارات أبيه العسكرية فسار على رأس جيش من غرناطة لمهاجمة قوة مسيحية بالقرب من الأشانة وحارب بشجاعة ، ولكنه هزم وأخذ أسيراً . واشترى خلاصه بأن وعد بمساعدة المسيحيين ضد أبيه . وبأن يدفع للحكومة الأسبانية اثني عشر ألف دوكات كل سنة . وفي الوقت نفسه نصب عمه أبو عبد الله المشهور بلقب عز زغرل « أي الشجاع » نفسه أميراً على غرناطة ، ونشبت حرب أهلية ثلاثية بين الأب والابن والعم على العرش الغرناطي ، ومات الأب واستولى الابن على الحمراء ، وانسحب العم إلى وادي آش Guadix حيث حاول مراراً أن يهاجم الأسبان كلما وجدهم وأراد أبو عبد الله أن يقلد عمه فامتنع عن الوفاء بوعدده ودفع الجزية وأعد عاصمته لمقاومة الهجوم الذي لا مفر منه .

فوزع فرديناند وايزابلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التي تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها . فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض الزيتون والبرتقال ، وحوصرت مالقة ليمنعوها من تلبى المؤن إلى غرناطة أو إرسالها وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط ، وكانوا يموتون بالآلاف من الجوع أو المرض . وأرغمها فرديناند على أن تسلم بلا قيد ولا شرط ، واستعبد الاثني عشر ألف الذين بقوا من سكانها ، ولكنه سمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه . واستسلم عز زغرل وأصبح إقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة في أيدي المسيحيين .

وشيد الملكان الكاثوليكيان ، فسطاطاً كاملاً لجندهم ، حول القلعة المحاصرة وأطلقوا عليها اسم سانتافييه ، وانتظروا أن يموت أهلها جوعاً ،

ليجعلها مفخرة الأندلس تحت رحمتها . وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة ، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد ، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل ، بيد أن فرديناند لما رأى أن خير المحاربين من رجاله يقتلون واحداً بعد واحد ، على أساس خطة الفروسية هذه ، وضع حداً لتلك المبارزة ، وقاد أبو عبد الله قواته في هجوم يائس ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من سلطان تركيا ومصر ، ولم يتلقوا شيئاً ، فقد كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه كالعالم المسيحي .

ولم يجد أبو عبد الله بداً من توقع شروط التسليم التي أسبغت شرفاً نادراً على الفاتحين . ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم ، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات ، وعند ذلك يؤخذ منهم ما كان يجبيه الحكام المسلمون ، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان ، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا ، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب في العبور إلى إفريقية الإسلامية .

ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبي عبد الله . وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند ( ٢ يناير ١٤٩٢ ) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين ، وسط صفوف المشيحيين ، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التي كان عليه أن يحكمها تابعا لقشتالة ، ومن فوق الصخور الشامخة التي عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التي فقدتها ، ولا تزال هذه القننة تسمى آخر زفرة للعربي El Ulximo Sospiro del Moro وأنبته أمه على بكائه قائلة « ابلك كالنساء ملكالم تحافظ عليه كالرجال » .

ودخل في الوقت نفسه الجيش الإسباني بالمدينة . ورفع الكاردينال مندوزا صليباً فضياً عظيماً فوق الحمراء ، وركع فرديناند وايزابلا في ساحة

المدينة شكراً لله الذي أخرج الإسلام من إسبانيا بعد إحدى وثمانين  
وسبعمائة سنة .

### ٣ - فرديناند وايزابلا

بعد القرن الذي يقع بين موت هنري أمير ترستامارا ( ١٣٧٩ ) ، واعتلاء  
فرديناند لعرش أراجون ، فترة ركود لإسبانيا . فقد تعاقبت مجموعة من  
الحكام الضعفاء وسمحوا للنبلأ بأن يعيشوا في الأرض فساداً بتنازعهم ،  
وكانت الحكومة مهملة فاسدة ، ولم يكن هناك رادع للثأر الشخصي ،  
وكثر الحروب الأهلية إلى حد أن الطرق لم تكن آمنة للتجارة ، وكثيراً  
ما احتلت الجيوش الحقول ، حتى اضطر الفلاحون إلى تركها جرداء . ولقد  
حكم جون الثاني القشتالي فترة طويلة ( ١٤٠٦ - ٥٤ ) وكان كلفه بالموسيقى  
والشعر قد جعله لا يعنى بشئون الدولة ، وتبعه تملك هنري الرابع الوييل ،  
وهو الذي اكتسب لقب انريك العقيم بعدم كفايته الإدارية وعيئه بالعملة  
وبعثرة الموارد على المقربين الطفيليين . وأوصى بعرشه إلى جوانا ، التي  
ادعى أنها ابنته ، وأنكر النبلاء الغضاب أبوته وقدرته على الإنجاب ، وأجبروه  
على أن يستخلف أخته إيزابلا ولكنه أعاد تأكيد بنوة جوانا وحققها في الحكم  
عند ما جاءت الوفاة ( ١٤٧٤ ) ومن هنا الاضطراب المعطل للمرافق ، صاغ  
فرديناند وإيزابلا النظام والحكم اللذين جعلوا إسبانيا أقوى دولة في أوروبا  
مدى قرن من الزمان .

ومهد السفراء لتحقيق ذلك بإقناع إيزابلا ، وهي في الثامنة عشرة من  
عمرها أن تزوج ابن عمها فرديناند ، البالغ من العمر سبع عشرة سنة فقط  
( ١٤٦٩ ) وكان العروسان معا من نسل هنري أمير ترستامارا ، وكان  
فرديناند قد أصبح بالفعل ملكا على صقلية ، وإذا مات أبوه يصبح ملكا  
على أراجون أيضا ، فجمع الزواج لذلك ثلاث دول في مملكة قوية واحدة ،

وامتنع بول اثانى من إعطاء الوثيقة البابوية المطلوبة لتجعل زواج أبناء الأعمام شرعيا ، وزيفت الوثيقة المنشودة على يد فرديناند وأبيه وكبير أساقفة برشلونة ، وبعد أن تم هذا الصنيع صدرت وثيقة أصيلة عن البابا سكتوس الرابع ، وبقيت صعوبة مادية أكبر هي فقر العروس ، الذى أبى أنحوها أن يعترف بالزواج ، وفقر العريس الذى أنهمك أبوه فى الحرب ، انهما كما يجعله لا يستطيع إقامة حفل ملكى ، ويسر محام يهودى طريق السياسة الخالصة ، بأن قدم قرضا مقداره عشرون ألف سولدس سددها إيزابلا عند ما أصبحت ملكة على قشتالة<sup>(١)</sup> ( ١٤٧٤ ) .

وتحدى حقها فى اعتلاء العرش افرنسو الخامس ملك البرتغال الذى تزوج من جوانا . وحددت الحرب فى تورو النتيجة إذ قاد فرديناند القشتاليين إلى النصر ( ١٤٧٦ ) وبعد ذلك بثلاث سنوات ورث عرش أراجون وهكذا أصبحت إسبانيا بأسرها ما عدا غرناطة وناقار فى ظل حكومة واحدة . وظلت إيزابلا ملكة على قشتالة فقط ، وحكم فرديناند أراجون وسردينيا وصقلية وشارك فى حكم قشتالة واحتفظ لإيزابلا بالإدارة الداخلية لقشتالة ، ولكن المواثيق والمراسيم الملكية كانت توقع منهما معا ، وحملت العملة الجديدة رأسهما معا . وجعلت صفاتهما الحميدة فرديناند وإيزابلا أكثر زوجين ملكيين تأثيرا فى التاريخ .

---

( ١ ) كانت وحدة العملة القشتالية فى القرن الخامس عشر هى المارافيدى النحاسية وكل ١٨٠٧ من هذه العملة تساوى سويلد وأراجونى ، وكل ٢٤ تصبح ريالا فضيا و ٣٧٤ تصبح اكسكود وأودوكات ذهبية وأن تغير سعر هذه العملات يجعل من الصعب أن نفترض المكافئة لها من العملة الحديثة . ولكن لما كان أجر العامل فى إسبانيا إبان القرن الخامس عشر نحو من ستة مارافيدى يوميا ، فلن تكون مبالغين إذا جعلنا المارافيدى يعادل ٧٦ ٪ من الدولار فى عملة الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ والسويلد ويعادل ١٠٢٠ دولار والريال يعادل ٢٠٢٨ دولار والاسكود ويعادل ٢٥ دولار .

وكانت ايزابلا ذات جمال لا يعادله جمال ، هكذا قال رجال حاشيتها  
أى انها كان لها نصيب من الجمال ، كانت متوسطة القوام ، ذات عينين  
زرقاوين وشعر كستنأى يميل إلى الحمرة . ونالت من التعليم حظا أكبر  
من فرديناند ، وكانت أقل منه ذكاء وأرق حاشية . وكانت تستطيع أن  
ترعى الشعراء وأن تتحدث إلى الفلاسفة الحذرين ، ولكنها آثرت صحبة  
القساوسة . واختارت أكثر الأخلاقيين تزمنا ليكونوا أصحاب هدايتها  
واعترافها . ومع أنها زفت إلى زوج غير أمين فيبدو أنها حافظت على  
العهود الزوجية الكاملة إلى النهاية ، وعاشت في عصر مائع كعصرنا إلا أنها  
كانت نموذجا للخفر . وظلت وسط الموظفين الفاسدين والسفراء المنحرفين  
صريحة مستقيمة لا يتطرق إليها الفساد . ولقد ربها أمها على الصرامة في  
اتباع السنة والتقوى ، وتوسعت ايزابلا فيهما إلى حد التقشف ، وكانت  
شديدة قاسية في القضاء على المرطقة بمقدار ما كانت رحيمة كريمة في كل  
أمر آخر . وكانت الرقة نفسها بالنسبة لأطفالها ، وسند الوفاء لأصدقائها .  
وبذلت وأعطت في سعة للكنائس والأديرة والمستشفيات . ولم تمنعها  
أرثوذكسيتها من اتهام بعض بابوات عصر النهضة بالخروج على الأخلاق .  
وتفوقت في كل من الشجاعة المادية والمعنوية ، ولقد صمدت للنبلاء  
الأقوياء وأخضعتهم ونظمتهم واحتملت بهدوء أقصى ضروب الحرمان .  
وواجهت بشجاعة تنتقل منها إلى غيرها أهوال الحرب وأخطارها . ورأت  
أن من الحكمة أن تحرص على مظهر الملكة أمام الشعب وغالت في المظاهر  
الملكية إلى حد البذخ في الحلل والحلى ، أما في حياتها الخاصة فقد كانت  
بسيطة الثياب ، معتدلة في طعامها وترجى فراغها بالتطريز الدقيق للكنائس  
التي توثرها . وعملت بضمير حى في القيام بشئون الحكومة وأخذت على  
عاتقها المبادأة في الإصلاحات الرشيدة ونهضت بالقضاء وربما كانت في  
ذلك صارمة أكثر من اللازم ، ولكنها صممت على أن ترفع مملكتها من

الاضطراب الذي لا يعرف قانونا إلى سلم يعتصم بالقانون ووضعها المعاصرون الأجانب أمثال باولو جيوفيو وجويشياردين والفارس بايار ، بين أقدر ملوك العصر ، وشبهوها بالبطلات العظيمات في التاريخ القديم . وقدسها رعاياها ، بينما احتملوا الملك بصبر نافذ .

ولم يستطع أهل قشتالة أن يغتفروا لفرديناند أنه دخيل عليهم - أي أرجوني ورأوا فيه نقائص كثيرة حتى وهم يمجدون انتصاراته باعتباره رجل دولة وسياسيا ومحاربا ووازنوا بين مزاجه الفائر المتحفظ وبين حرارة الملكة في عطفه ، وبين انطوائه الحذر وبين صراحتها المستقيمة ، بين تقديره وكرمها ، بين كزازته في معاملة معاونيه وبين انبساط يدها بالمكافأة على ما يقدم لها من خدمات ، بين صبواته وبين قناعتها الهادئة ، ولم ينكروا عليه إنشاءه لمحاكم التفتيش ولا استغلاله لعواطفهم الدينية كسلاح من أسلحة الحرب ؛ فقد استحسنوا حملته على المرطقة وفتحها غرناطة وطرده اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، وكان أكثر ما يحبون فيه أقل ما يعجب به الخلف . فلم نسمع احتجاجاً على صرامة قوانينه - قطع اللسان على السب والإجراق حياً على اللواط ولا حظوا أنه يجنح إلى العدالة بل إلى التساهل ، إذا لم يمنع ذلك امتيازاً شخصياً أو يعطل سياسة قومية وأنه يستطيع أن يقود جيشه بشجاعة وبراعة ، وإن أثر مساجلة العقول بالمفاوضة أكثر من منازلة الإنسان في الحرب وأن بخله لم يكن للإنفاق على أسباب الترف الشخصي ولا بد أنهم تثبتوا من عاداته التي تؤثر الاعتدال ورباطة جأشه في الملمات ، واتزانه عند النجاح ، واختياره الرشيد لمعاونيه ، وجهده المبذول بلا كلل على شؤون الحكومة وشعبه وراء أهداف بعيدة بكياسة ممتدة ووسائل حذرة . واغتفروا له الظهور بوجهين باعتباره سياسيا وكثرة حشته بوعدده ، أم يحاول جميع الحكام غيره بوسائل مماثلة أن يدعوا قرابتهم له ويحتالوا على إسبانيا ؟ ولقد قال متجهما « إن ملك فرنسا يشكو أنني خدعته مرتين . إنه يكذب ، ذلك الغبي لقد

خدعته أكثر من عشر مرات . ودرس مكيا في بعناية سيرة فرديناند وأفاد من دهائه ومدح أعماله . . . . بأنها كلها عظيمة وبعضها صادق . ووصفه بأنه أفضل ملك في العالم المسيحي . وكتب جويكشيار ديني « ما أعظم الفرق بين أقوال هذا الأمير وأفعاله ، وكيف يضع خططه في عمق وتكم . ورأى البعض أنه مجسود . ولكن الحق أن حظه الموفق إنما كان في تدابير الأحدات بعناية وانتهازه للفرص السانحة وإذا أحكم التوازن بين فضائله وجرائمه ، فإنه يبدو أنه دفع إسبانيا بوسائل شريفة وأخرى دنيئة ، من أجزاء متناثرة عقيمة متعددة الألوان ، إلى وحدة وقوة جعلتها في الجيل التالي المسيطرة وحدها على أوروبا .

ولقد تعاون فرديناند مع إيزابلا على إعادة الاستقرار للأنفس والأموال في قشتالة ، وفي بعث السانتا هرمانداد أو الآخرة المقدسة لتكون حرسا أهليا محليا لتحافظ على النظام ، وفي إنهاء السطو في الطرق العمومية والدسائس الجنسية في البلاط ، وفي إعادة تنظيم المحاكم وتوحيد القوانين ، وفي استرداد أراضي الحكومة التي سلمها الملوك السابقون بغير اكتراث إلى المقربين ، وفي أخذ النبلاء بالطاعة الكاملة للتاج ، وهنا أيضا ، كما كان الحال في فرنسا وإنجلترا ، أسلمت الحرية والفوضى الإقطاعيان إلى النظام المركزي للملكية المطلقة وتنازلت المجالس البلدية بدورها عن امتيازاتها ، وقلما اجتمعت المجالس الإقليمية وكان اجتماعها في الغالب للموافقة على أموال تمنح للحكومة ، وذبلت ديمقراطية واهية الجنود وماتت في ظل ملك صائب المراس . بل ان الكنيسة الإسبانية التي كانت عزيزة على الملكين الكاثوليكين (١) los reyes católicos انتزع منها جانب من ثروتها وكل حبتها في التشريع المدني ، وأصلحت إيزابلا أخلاق رجال الدين بصراحة ، وأكره البابا سكتوس

( ١ ) أي الملكان الكاثوليكيان - لقد أسبغ على فرديناند وإيزابلا البابا اسكندر السادس

الرابع ، على التنازل للحكومة عن حق تعيين كبار رجال الكهنوت في الكنيسة الإسبانية ورفق الكهنة القادرون أمثال بدروجزالس ده مندوزا واكسمنس ده نيروس ، لينصبوا كبار أساقفة دفعة واحدة لطليطلة وروساء وزراء في الدولة .

وكان الكاردينال اكسمينس شخصية إيجابية قوية كالمملك ، ولقد انحدر من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال ، فذهب في طفولته للكنيسة ، وأحرز في جامعة سالامنكا وهو في سن العشرين ، أجازات الدكتوراه في كل من القانونين المدني والكنسي . وعمل سنوات قسيسا وناظراً لمندوزا في أسقفية سيجونزا وكان ناجحاً ولكن غير سعيد ، ولم يأبه بالجاه أو المناصب ، فالتحق بأكثر فرق الأديرة صرامة في أسبانيا - وهي الفرنسيسكان الملتزمون بالأوامر والنواهي *Observantine Franciscans* . ولم يهجه غير الزهد فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة ويكثر من الصوم ويضرب نفسه بالسياط ، ويلبس قميصاً من الشعر على جلده . وفي عام ١٤٩٢ اختارت إيزابلا الوريعة هذا المتعبد النحيل راعياً لكنيستها الخاصة ومتلقياً لاعتراقاتها . وقبل ولكن بشرط وهو أن يسمح له بالاستمرار في سكن الدير والتزام قواعد الفرنسيسكان الصارمة ، وجعلته الفرقة رئيسها المحلي ، واستجابت لإلحاحه في الإصلاح العسير . ولما رشحته إيزابلا كبيراً لأساقفة طليطلة ( ١٤٩٥ ) رفض قبول المنصب ، ولكنه استسلم بعد إباء ستة أشهر لنشرة بابوية تأمره بالخدمة . وكان قد أشرف على الستين من عمره ، ويبدو أنه كان يرغب صادقاً أن يعيش راهباً . واستمر على طباعه الخشنة وهو مطران إسبانيا ورئيس المجلس الملكي ، وكان يلبس تحت الأردية الفخمة التي يتطلبها منصبه ، ذلك الجلباب الفرنسيسكاني الخشن ، وتحت قميص الشعر كما اعتاد قبل ذلك . وطالب جميع فرق الرهبان في الأديرة بأن تجرى نفس الإصلاحات التي أجرتها فرقته

فعارضه كبار رجال الدين ولكن الملكة أيدته وكأنما تجرد القديس فرنسيس من تواضعه وزود فجأة بقوتى برنارد ودومنيك وقدرتهما .  
ولم يكن ليرضى هذا القديس العبوس ، أن يجد يهوديين لم يتنصرا لهما مكانة مرموقة في البلاط . أحدهما من أكثر مستشارى إيزابلا ثقة وهو إبراهيم سنيور ، وقد أخذ هو وإسحاق إبراهيميل يجمعان الموارد لفرديناند وينظمان تمويل حرب غرناطة . وكان الملك والملكة وقتذاك معنيين بالمتنصرين بصفة خاصة آملين أن يأتى وقت يصبح فيه هؤلاء مسيحيين مخلصين وأجرت إيزابلا مدرسة لأصول الدين لتعليمهم ، ومع ذلك فقد احتفظ كثير منهم بعميدته السالفة سرّاً ولقنوها أبناءهم . وسكنت كراهية الكاثوليك لليهود غير المعمدين إلى حين ، بينما اشتد الحنق على « المسيحيين الجدد » ونشبت الفتن ضدهم في طليطلة ( ١٤٦٧ ) وبلد الوليد ( ١٤٧٠ ) وقرطبة ( ١٤٧٢ ) وسيجوفيا ( ١٤٧٤ ) وأصبحت المسألة الدينية عنصرية أيضاً ، ودبر الملك والملكة الفتيان الوسائل التى تحول هذا المزيج المضطرب فى الشعوب واللغات والمذاهب المتصارعة إلى وحدة منسجمة وسلام اجتماعى . ورأيا أن خير وسيلة لبلوغ هذه الأهداف هى إعادة محاكم التفتيش إلى إسبانيا .

#### ٤ - وسائل محكمة التفتيش

نحن اليوم غير متحققين ومختلفون فى آرائنا حول أصل العالم والإنسان ومصيرهما حتى إننا أمسكنا فى معظم البلاد ، عن معاقبة الناس لمجرد أنهم يختلفون عنا فى معتقداتهم الدينية . ونحن إنما نوجه تسامحنا الحاضر إلى أولئك الذين يناقشون مبادئنا السياسية والاقتصادية ، ونحن نفسر مذهبنا الثابت المروع على أساس أن أى شك يثار فى وجه ادعائنا الذى نقيم عليه الدليل ، يهدد تماسكنا وبقائنا القوميين . ولقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون

إلى منتصف القرن السابع عشر ، أكثر تشبثا بالدين مما نحن عليه الآن ، وكانت علوم الكلام هي أئمن وأوثق ما يملكون ، ونظروا إلى أولئك الذين ينكرون هذه المذاهب كأنما يهاجمون أصول النظام الاجتماعى وجوهر الحياة الإنسانية . واعتقاد كل جماعة بصحة مذهبها جعلها متشددة إلى حد التعصب ودمغ الآخرين بأنهم كفار .

وانتشر مبدأ محكمة التفتيش فى يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة ، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعا لحكم العادة والخيال . واعتقد جميع مسيحي القرون الوسطى تقريبا عن طريق تعليمهم فى الطفولة والوسط الذى عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحي الله بكل لفظ فيه ، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة المسيحية مباشرة . وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم مسيحية وأن الإيمان بديانات غير مسيحية - أو ضد المسيحية على التحقيق - يعد كبيرة فى حق الله . يضاف إلى ذلك ، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدى بالضرورة إلى عقاب أبدي فإن المختصين منها قد يعتقدون ( ويظهر أن كثيرين منهم قد اعتقدوا بإخلاص ) أنهم بإزهاق روح هرطيق ، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنقذوه هو نفسه من الجحيم الأبدي .

ومن المحتمل أن إيزابلا ، التى عاشت فى جو علماء الدين ، قد شاركت فى هذه الآراء . ولعل فردينان ، الذى كان رجلا صلبا من رجال الدنيا قد ارتاب فى بعضها ، ولكن يبدو أنه اقتنع بأن توحيد العقيدة الدينية يجعل إسبانيا أيسر حكما ، وأقدر فى التغلب على أعدائها . ولقد أصدر البابا سكستوس الرابع ، بناء على رغبة فردينان وإيزابلا قرارا ( أول نوفمبر ١٤٧٨ ) يفوض لهما أن يعينا ستة قسس ، من حملة الاجازات العليا فى علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ليحققوا تهم الهرطقة ويعاقبوا عليها . وأبرز شىء فى هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك إسبانيا ،

أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش ، التي كانت في صورتها السابقة ، تختار بوساطة رؤساء فرق الفرنسيسكان والدومنيكان المحلية . وهكذا أصبح الدين هنا خاضعا للدولة مدى ثلاثة أجيال ، كما حدث في ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين بعد ذلك بقرن ، وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوي ، وظلت المنظمة كهنوتية ، ووسيلة من وسائل الكنيسة وفي الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة . وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها وأن تحصل على دخلها الخالص ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها . وآثر فرديناند بمحبته هذه الوسيلة من بين جميع وسائل حكمه . ولم تكن أهدافه أول أمرها مالية ، فقد غنم من الأموال المصادرة للمحكوم عليهم ولكنه رفض رشاوى مغرية من الضحايا الأغنياء للتأثير على القضاة ، وكان همه منصباً على توحيد أسبانيا .

وأعطى القضاة سلطة استخدام معاونين من رجال الدين ومن المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام . ووضعت المنظمة برمتها بعد عام ١٤٨٣ تحت إمرة وكالة حكومية ، هي هيئة التفتيش العامة وتسمى عادة « مجلس محكمة التفتيش العليا والعامة » *Concejo de la Suprema-y General* ، وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين في أسبانيا ، ولم تمس اليهود الذين لم يتنصروا ، ووجهت أهواها إلى المنتصرين الذين يشك أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة ، وكان اليهودي غير المنتصر إلى عام ١٤٩٢ آمناً على نفسه أكثر من المعمد . وطالب القسس والرهبان والمتعبدون الإعفاء من التفتيش ؛ ولكن مطالبهم رفضت ، وقاوم اليسوعيون تشريعها نصف قرن ولكنهم غلبوا على أمرهم أيضاً . والحد الوحيد لقوة الهيئة العليا إنما هو سلطة الملوك ، بل

أن هذا الحد قد أهمل في القرون المتأخرة . وطالبت محكمة التفتيش وتلقت عادة التعاون من جميع الموظفين المدنيين .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاتها في مدينة من المدن تديع في الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً « يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش . وشجع كل امرئ على أن يكون شاهداً ، ليلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه . ( ولم يكن يسمح في القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة ، وأوقع حرم صارم - أي حرمان ولعنة - على هؤلاء الذين يعرفون هرطقاً ويخفونه . فإن ظل يهودى معمد يأمل في عودة المسيح ، وإذا حافظ على قواعد الطعام التي في الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم ، وإذا احتفل بأى وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود ، وإذا نختن أى واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبرى ، أو باركهم دون أن يقوم بعلامة الصليب ، وإذا صلى بحركات رأسه أو ردد مزموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله في الأعلى ، وإذا أتجه بوجهه إلى الحائط وهو يحتضر ، فإذا فعل هذا وأمثاله ، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التي لا بد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً . ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله في خلال « مهلة صفح » أن يأتى إلى المحكمة ويعترف بها ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هرطقة آخرين .

ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يتمحصون بعناية القرائن التي جمعها المبلغون والمحققون . حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه . ويتحفظ على المقبوض عليه

في سجن انفرادي ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقربائه ؛ وكان يقيد بالسلاسل عادة . ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه . فإذا لم يقدم المال الكافي لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه لينفي بالمبلغ المطلوب . أما باقى أمتعته فيحجز عليه بوساطة مندوبي محكمة التفتيش حتى لا ينجبأ أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة . وفي معظم الأحوال يباع جانب منه لإعانة من يعجزون عن العمل من أسرة الضحية . وعندما يدفع المقبوض عليه للحضور أمام المحاكمة فإن المحكمة وقد سبق أن حكمت عليه بأنه مذنب ، تلقى على كاهله عبء إثبات براءته . وكانت المحكمة سرية خاصة وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع في حالة إطلاق سراحه . ولا يستدعى شهود إثبات التهمة إليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، وبرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضروري لحماية مبلغهم . ولم يكن يخبر المتهم أولاً عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشي بكل الأشخاص الذين يتهمون ياهرطقة . فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه ، ويتحفظ عليه في الوقت نفسه في سكن انفرادي . وفي كثير من من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً ، ويكفى التقييد بالسلاسل في السجن الانفرادي غالباً للحصول على أى اعتراف .

ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترح عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل ، وإن كانت القرائن لا تقطع به . ويوئجل التعذيب الذي يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفرع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة

للمدافع عن نفسه وهو الذي سبق أن عد مذنباً ، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف ، بل أنه إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم ؛ ومع ذلك ، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً ، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه في الهرطقة أو الجريمة . وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عن يذكر الحقيقة منهم ؛ وقد يعذب العبيد ليقوموا بالدليل على سادتهم . ولم يكن هناك حد في السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات في الثالثة عشرة ونسوة في الثمانين قد ألزمن العذراء<sup>(١)</sup> ، بيد أن قواعد محكمة التفتيش الأسبانية حرمت التعذيب بالنسبة للمراضع أو ذوى القلوب الضعيفة أو المتهمين بهرطقات صغيرة كالأخذ بالرأى الشائع الذى يقول إن الزنا خطيئة صغيرة يصفح عنها . ويجب أن يحال بين التعذيب وبين إصابة الضحية بعاهة مستديمة ، ولا بد أن يوقف كلما أمر الطبيب المسئول ، ولا ينفذ إلا بحضور قضاة التفتيش المنوط بهم القضية ، وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل وممثل للأسقف المحلى . واختلفت الوسائل باختلاف الزمان والمكان . وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منهما أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً ، ثم يقطر الماء في حلقه حتى يشرف على الاختناق ؛ وقد تربط يده ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم إلى العظام . ولقد أثبتنا أن وسائل التعذيب التى استعملتها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة ، أو مما توسلت به المحاكم المدنية في ذلك العصر . وكان أهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد .

ولم تكن محكمة التفتيش تتألف من مدع وقاض ومخلفين فقط ، ولكنها أصدرت أيضاً أوامر خاصة بالعقيدة والأخلاق وأنشأت مراتب ناعقوبات . وكانت رحيمة في معظم الأحوال ، وتتسامح في جزء من العقوبة بسبب

(١) وهى آلة تعذيب تمط الجسم .

سن المحكوم عليه أو جهله أو فقره أو سكره أو سمعته الحسنة بصفة عامة . وكانت أخف العقوبات هي التعنيف . وأقسى منها هو الإكراه على المجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة أمام الناس - التي تترك حتى البريء ميسوماً بها إلى آخر حياته ، وكان يطلب عادة إلى المعاقب بالأشغال الشاقة أن يحضر القداس بانتظام ، مرتدياً لباس الإدانة « sanbenito » وهو جلباب رسم عليه صليب برّاق . وربما عرض في الطرقات وقد جرد من ثيابه إلى وسطه وحمل شعار جريرته . وقد يحرم هو وذووه من المناصب العامة إلى الأبد . أو ينفي من مدينته ، وقلما ينفي خارج أسبانيا . وقد يجلد من عشر جلادات إلى مائة جلدة إلى الحد الذي لا تزهدق فيها روحه . وكانت هذه العقوبة تطبق على النساء كما تطبق على الرجال . وقد يلقي به في السجن أو يدفع به إلى السفن - وهو ما أوصى فرديناند بأنه أنفع للدولة ، وربما دفع غرامة مادية أو صودرت أمواله . وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة في أحوال متعددة وحوكموا بعد الموت وحكم عليهم بالمصادرة فيفقد الوراثة في هذه الحالة ميراثهم . وكان المبلغون عن الهرطقة الموتي يمنحون من ٣٠٪ إلى ٥٠٪ من المتحصل . ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعي للمبلغين في بعض الأحيان « مصالحات » تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها وإغراءً للمبلغين والمفتشين والحكومة . حتى إذا انسابت الأموال في خزائن محكمة التفتيش فإن موظفيها أصبحوا أقل اهتماماً بالمحافظة على العقيدة الصحيحة من الحصول على الذهب وانتشر الفساد انتشاراً مروعاً .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق في المحرقة . وهي للذين حكم عليهم بأنهم اقرءوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا في الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنهم ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة . وصرحت محكمة التفتيش نفسها بأنها لم تقدم

على التمل قط ، وقصاراها أنها كانت تسلم المحكوم إليه إلى الساعات المدنية ، وقد علمت أن القانون الجنائي يجعل الإحراق في المحرقة نافذاً في جميع العقوبات على المخرطة الكبيرة أو التي لا توبة عليها . وإن حضور رجال الكهنوت عند المحرقة يدل على مسئولية الكنيسة ، ولم يكن المشهد الخاص بالإيمان هو مجرد الإحراق ، ولكنه الاحتمال المؤثر المروع كله بالنطق بالحكم والتنفيذ . ولم يكن غرضه ممتصوداً على ترويع المخالفين في السر ، وإنما لتهديب الشعب كأنما يطلعونهم مقدماً على يوم الحساب .

وكان الإجراء في أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش في أهبة على منصة تواجهها ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلي باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران ، ويبلغ الفرع منتهاه . بيد أن كثرة الإحراق وفقد بعض سلطانها النفسى ، جعل الاحتمال أكثر تعقيداً ورهبة وعنى بإظهاره بكل أسباب العناية والنفقة ، التي يتطلبها إخراج مسرحى كبير . وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش أو الزواج أو الزيارة من ملك أو منكة أو أمير أسباني . وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسس والرهبان المحليون ، بل في الواقع كان يطلب حضورهم . وفي أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الأماثل إلى موكب كتيب يسير في طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية . وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم ، فيستسلم كثيرون منهم . وتخفف أحكامهم إلى السجن فترة من الزمن أو مدى الحياة . وفي الصباح التالي يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى ساحات المدينة . وفيهم الدجالون والمجدفون في الدين والمضارون<sup>(١)</sup> والهراطة والمرتدون . وفي

(١) المتزوج من امرأتين .

الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت ، وينتظم الموكب أحياناً دى  
تمثل المحكوم عليهم غيابياً أو - صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد  
الموت . وفى الساحة على مدرج مرتفع أو أكثر ، يجلس قضاة محكمة  
التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة ، يرأسهم  
الملك بين حين وآخر . وتذاع عظة ، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد  
بين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة  
بجميع أشكالها وفى كل مكان . ثم يساق المسجونون واحداً بعد واحد ،  
أمام المحكمة ، وتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم . ويجب علينا ألا نتخيل  
معارضة باسلة لذلك ، وربما كان كل سجين فى هذه المرحلة مشرفاً على  
التلف الروحى والانهار البدنى . بل إنه قد ينقذ حياته فى هذه اللحظة  
بالاعتراف . وفى تلك الحالة تمنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة أمواله  
وسجنه مدى الحياة . وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه ، فإنه  
يغرم الرحمة بشنقه قبل إحراقه ، ولما كانت الاعترافات فى اللحظة الأخيرة  
كثيرة ، فقد أصبح إحراق الأحياء نادراً نسبياً ، أما الذين يحكم عليهم  
باهرطقة الكبيرة ، وينكرون ذلك إلى النهاية ، يجرمون ( وظل ذلك مرعياً  
إلى عام ١٧٢٥ ) من الكنيسة المقدسة ، ويتركون برغبة محكمة التفتيش  
للجحيم الأبدى . أما الذين تخفف أحكامهم فيعادون إلى السجن ، والذين  
لم تقبل توبتهم فيدفع بهم إلى السلطة المدنية ، مع تحفظ وردع بعدم إراقة  
دم . ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة  
للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة . حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ  
شنق المعترفون ثم أحرقوا بينما يحرق المعاندون أحياء . وتظل النيران تغذى  
بالوقود حتى تصير العظام رماداً ، ينتثر على الحقول والحدائق . ثم يعود  
القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قرباننا قدم  
استعطافاً لإله غاضب من الهرطقة . وهكذا أعيد القربان البشرى .

## ٥ - تقدم محكمة التفتيش ( ١٤٨٠ - ١٥١٦ )

عين فرديناند وإيزابلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش في سبتمبر من عام ١٤٨٠ ، لمنطقة إشبيلية . ففر كثيرون من الإشبيليين المنتصرين إلى الريف ، وبحثوا عن الملجأ الأمين عند السادة الإقطاعيين ، وكانت عند أولئك رغبة في حمايتهم ، ولكن قضاة التفتيش هددوا البارونات بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة الأموال ، فما كان منهم إلا أن سلموا اللاجئين ، أما في المدينة نفسها فقد دبر بعض المنتصرين المقاومة المسلحة ولكن التدبير أفشى ، وقبض على الضالعين في هذا التدبير وسرعان ما امتلأت السجون . وتبع ذلك محاكمات متعجلة غضوب ، واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية في السادس من فبراير لعام ١٤٨١ بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه ، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً .

وفي عام ١٤٨٣ عين البابا أسكستوس الرابع بترشيح وطلب من فرديناند وإيزابلا ، راهباً دومينيكيًا ، هو توماس ده توركيادا ، مفتشاً عاماً لإسبانيا بأسرها ، وكان مؤمناً متعصباً لا يتطرق الفساد إليه ، يحتقر الترف ويعمل بحماسة شديدة ويحتفل بفرصته السانحة ليخدم المسيح بتصيد الهراطقة وكان يؤنب قضاة التفتيش على التساهل ، ونقض كثيراً من أحكام البراءة وطالب الرهبانيين في طليطلة مهدداً إياهم بالموت أن يبلغوا عن الذين ارتدوا إلى اليهودية . وفتح البابا اسكندر السادس من قسوته ، وهو الذي سبق أن مدحه على أخلاقه لعمله ، فأمره ( ١٤٩٤ ) أن يشرك في سلطته مفتشين عامين آخرين . وتجاوز توركيادا هذين الزميلين ، واحتفظ برئاسة حازمة عليهما . وجعل محكمة التفتيش حكومة في داخل الحكومة تضارع سلطة الملوك . وأحرقت محكمة التفتيش في سوداد ريال بدافع منه في سنتين ( ١٤٨٣ - ٨٤ ) اثنين وخمسين شخصاً وصادرت أموال مائتين وعشرين شريداً

وعاقبت مائة وثلاثة وثمانين تائباً . وفي مدى سنة واحدة من نقل المفتشين لمقرهم الرئيسي إلى طليطلة قبضوا على سبعمائة وخمسين يهودياً متنصراً وصادروا خمس أموالهم ، وحكموا عليهم بأن يسيروا في مواكب حاشدة في ستة أيام جمعة ، يضربون أنفسهم بسياط من القنب ، وفي هذه السنة (١٤٨٦) أقيمت محرقتان أخريان وأحرقت رفات ألف وستمائة وخمسين تائباً . وبذلت جهود مماثلة في بلاد الوليد ووادي لوب وغيرهما من مدن قشتالة .

وقاومت أراجون محكمة التفتيش بشجاعة يائسة . فقد أغلق حكام تيrol أبواب المدينة في وجه المفتشين . فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرار الحرمان على سكانها وأوقف فرديناند مرتبات موظفي المجلس البلدي ، وسير جيشاً يكره الأهلين على الطاعة ، أما الفلاحون المجاورون الذين كانوا على عدااء دائم للمدينة ؛ فقد هرعوا يؤيدون محكمة التفتيش ، التي وعدتهم بالإعفاء من جميع الإيجارات والديون التي عليهم لأشخاص المتهمين بالهرطقة . واستسلمت مدينة تيrol وأعطي فرديناند المفتشين سلطة نفي كل شخص يشكون في أنه اشترك في المقاومة ، وفي سر قوسة انضم إخوة المسيحيين القدماء إلى الإخوة « المسيحيين الجدد » في الاحتجاج على دخول محكمة التفتيش مدينتهم ، ومع ذلك فلما أقيمت محكمة التفتيش هناك اغتال بعض المنتصرين أحد رجالها ( ١٤٨٥ ) وكان ذلك خطأ مهلكاً ، لأن الأهلين المفزعين احتشدوا في الطرقات صائحين « احرقوا المنتصرين » وسكن كبير الأساقفة من روع الغوغاء بأن وعد بالمحاكمة السريعة . وقبض على جميع المتآمرين تقريباً وأعدموا ، وقفز أحدهم ليلقي مصرعه من البرج الذي سجن فيه ؛ وحطم آخر مصباحاً من الزجاج وابتلع شظاياها ، ثم وجد ميتاً في محاسبه . ورفض مجلس الكورتيس في بلنسية ، السماح للمفتشين بمزاولة عملهم ، فأمر فرديناند بالقبض على كل من يحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، واستسلمت بلنسية . وحنق الملك تأييداً للتفتيش الحريات التقليدية لأراجون ، الواحدة

بعد الأخرى ؛ وأثبت اتحاد الكنيسة مع الملكية ، بقرارات الحرمان والحيوش الملكية ، بأنه أقوى من أن تقاومه مدينة أو ولاية بمفردها . وحددت في بلنسية وحدها عام ١٤٨٨ تسعمائة وثلاثة وثمانون حكماً بالهرطقة وأحرق مائة رجل .

فكيف نظر الباباوات إلى اصطناع محاكم التفتيش كأداة من أدوات الدولة ليس من شك في أن عدداً من الباباوات قد حاولوا أن يوقفوا مثل هذا الإفراط وأن يبسطوا حمايتهم على ضحايا التفتيش بين حين وآخر ، منكرين هذا التحكم المدني ؛ ومدفوعين في الغالب بالعواطف الإنسانية مع إدراكهم للمصارييف الباهظة التي تدفع للتصديق على أحكام محكمة التفتيش . فقد أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لو نفذ لوضع حداً لمحكمة التفتيش في أراجون ؛ وشكافيه من أن المفتشين يبدون طمعا في الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم وأمر بأن على المفتش في المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلي الأسقف المحلي والحصول على موافقتهم ؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا في سجون الكنيسة ؛ وأن يسمح للشاكين في الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة ، وأن يؤجل كل تصرف في القضية حتى يحكم في الاستئناف ، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة ، على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا ؛ وبذلك يصبحون في حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة . وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة ، وكل من يخرج على هذه القواعد في المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة . لقد كان مرسوماً متنوراً وأحكامه توحى بصدقه ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التي أنفق المتنصرون فيها بسخاء في سبيل الحصول عليه . ولما رفضه فردنياند

وقبض على مبلعيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم ، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخر ؛ اللهم إلا تعطيله لمفعول قراره بعد ستة أشهر من إصداره .

وأخذ المنتصرون اليائسون يصبون الأموال صبا في مدينة روما ، مناشدين الحصول على فتاوى شرعية وبراعة من استدعاء محكمة التفتيش لهم أو حكمها عليهم . وقبلت هذه الأموال ، وأعطيت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط عليهم الملك حمايته جملة تجاهلوا ، وكان الباباوات في حاجة إلى حماية فرديناند وإلى المنحة الأسبانية السنوية ، فلم يصروا على تلك الفتاوى ، وكان المال يدفع في سبيل الحصول على قرار بالعفو فيصاحب ثم يسحب بعد ذلك . وعمل الباباوات بين حين وآخر على تأكيد سلطتهم مستدعين المفتشين إلى روما للرد على اتهامات وجهت إليهم بسوء السلوك وحاول إسكندر السادس أن يخفف من قسوة المحكمة . وأمر يوليوس الثالث بمحاكمة المفتش لوسيرو على سوء استعماله لسلطته ، وأصدر قرار الحرمان على مفتش طليطلة . ومع ذلك فقد عد ليو المهذب العالم ، القول بعدم إحراق الهرطقة ، من الهرطقة التي تستوجب اللوم .

كيف كان موقف الشعب الأسباني من محكمة التفتيش ؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة ، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة . وأظهرت الجماهير التي احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا ، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضحايا ، وحاولوا في بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعترافهم من المحرقة . وتجمع المسيحيون لابتغاء أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمزاد .  
كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت<sup>(٢)</sup> بأنهم بلغوا بين عامي

---

(١) جوان أنطونيو ليورنت ، قسيس إسباني ، كان أمينا عاما لمحكمة التفتيش في سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٠١ وانتدبه يوسف بونابرت عام ١٨٠٩ لفحص محفوظات محكمة التفتيش وكتابة تاريخها . وقد ترك إسبانيا مع الفرنسيين المنسحبين ونشر تاريخه عن محكمة التفتيش في باريس عام ١٨١٧ .

١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وبين عامي ١٤٨٠ - ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة ، وكانت هذه الأرقام في معظمها تخمينية . ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا في المبالغة . يذهب مؤرخ كاثوليكي إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامي ١٤٨٠ و ١٥٠٤ ، وألفان آخران حتى سنة ١٧٥٨ . وأحصى كاتب سر ايزابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا ، بألفين قبل عام ١٤٩٠ وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف في إشبيلية وحدها وكانت هناك ضحايا في معظم المدن الأسبانية ، بل في الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضي الواطئة وأمريكا .

ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠ . ولا تصور الإحصائيات أيا كانت الفرع الذي عاش فيه العقل الأسباني في تلك الأيام والليالي . فقد كان على الرجال والنساء حتى في ستر منازلهم ، أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدي بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش . لقد كان ضغطا عقليا لا نظير له في التاريخ .

هل نجحت محكمة التفتيش ؟ نعم ، نجحت في تحقيق غرضها الذي أعلن عنه ، وهو تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة . فإن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقدات لا تأثير له أبداً ، ضلال ، فقد سحق الأليبيجينزيين والهيجونوت في فرنسا ، والكاثوليك في إنجلترا في عهد الزابث والمسيحيين في اليابان - وانتزعت ، في القرن السادس عشر ، الجماعات الصغيرة التي عطفت على البروتستانتية في أسبانيا . ولعلها قوت من ناحية أخرى البروتستانتية في ألمانيا واسكنديناوه وإنجلترا بإثارة خوف قتال في نفوس شعوبها ، مما يحقق بهم ، إذا أعيدت الكاثوليكية .

ومن العسير أن نقدر نصيب محكمة التفتيش في القضاء على الفترة  
المزدهرة من تاريخ أسبانيا ، الواقعة بين كولومبس وفيلاسكيه ( ١٤٩٢ -  
١٦٦٠ ) وبلغت هذه الفترة أوجها بمجيء سرفانتس ( ١٥٤٧ - ١٦١٦ )  
لوب ده فيجا ( ١٥٦٢ - ١٦٣٥ ) وذلك بعد انتشار محاكم التفتيش في  
أسبانيا بمائة عام . ولقد كانت محكمة التفتيش نتيجة كما كانت سبباً لقوة  
المذهب الكاثوليكي . وسيطرته على الشعب الإسباني ، وإن هذه الحالة  
الدينية ، قد نمت خلال قرون في الصراع ، ضد المسلمين : ولعل انحلال  
اسبانيا من جراء حروب شارل الخامس وفيليب الثاني وضعف الاقتصاد  
الاسباني بفضل انتصارات بريطانيا في البحر والسياسة التجارية للحكومة  
الأسبوعية ، كان أشد تأثيراً في اضمحلال اسبانيا من أهوال محكمة التفتيش .  
ولقد أظهر الحكم بإعدام العرافين في أوروبا الشمالية ونيوانجاند نزوعاً في  
الشعوب البروتستانتية قريباً لما في محكمة التفتيش الاسبانية . ومن العجيب أن  
نقول إن محكمة التفتيش الاسبانية قد عاملت العرافة بتعتل وعدتها وهما يستحق  
الإشفاق والعلاج لا العقاب . ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العرافين  
سوى تعبير عن عصر مصاب بالإيمان ، الباعث على القتل . لفرط ثقته  
بماوم الدين . كما تعود بعض أسباب المذابح الوطنية في عصرنا إلى الإيمان .  
الباعث على القتل ، بنظرية عنصرية أو سياسية . ويجب علينا أن نحاول  
ننهم مثل هذه الحركات بمصطلحات زمانها ، ولكنها تبتد لنا الآن  
أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية . ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع  
عدو ومهلك للعقل الإنساني .

## ٦ - هجرة إسرائيل

كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدايمى على  
السواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على  
المرطقة في مهدها وأن الجليل الثاني أو الثالث من اليهود المعمدين سوف

ينسون يهودية أسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن اسبانيا ، فلما حاولوا الهجرة حرّمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم في اسبانيا المسيحية . فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم .

فتردد فرديناند . ذلك أنه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين في التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المنتصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سراً . واتهم طبيبه رباس ألتس ، وهو يهودى معمد ، بأنه علق في رقبة كرة ذهبية تحتوى على صورة له على هيئة فيها تنجيس الصليب ، ويبدو أن التهمة غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق ( ١٤٨٨ ) . وزينت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى اسبانيا بأن يسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقبض على متنصر بتهمة وجود رقاقة مقدسة فى جعبته ، وعذب مراراً فتكراراً حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المنتصرين ومثلهم من اليهود قتلوا طفلاً مسيحياً ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحية . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض أحدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق أربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابة متوهجة وربما أثرت هذه الاتهامات وأمثالها فى نفس فرديناند ، ومهما يكن من شىء فقد مهدت لرأى عام يطلب إجلاء اليهود غير المعمدين عن اسبانيا . ولم تعد المساهمة الاقتصادية لليهود حيوية بعد أن استسلمت غرناطة ( ٥ نوفمبر ١٤٩١ )

وانتقل النشاط التجارى والصناعى من المسلمين إلى أسبانيا المسيحية . وجعل التعصب الشعبى الذى تلهبه المحرقة وعظمت الرهبان ، السلام الاجتماعى مستحيلا ، إلا إذا قامت الحكومة بحماية اليهود أو طردهم .

وفى ٣٠ مارس ١٤٩٢ - وهى سنة مزدحمة بالأحداث فى تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وايزابلا مرسوم نفى اليهود . وموئده أن جميع اليهود غير المعمدين ، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، عليهم أن يتركوا أسبانيا فى موعد غايته ٣١ يولييه ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام ، ولم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة بأى ثمن يحصلون عليه ولم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة . وقدم أبراهام سنيور وإسحاق ابرابانل ، للملكين مبلغاً كبيراً من المال ليسحبا مرسومهما ولكنهما رفضا . ولم يتم اتهام ملكى على اليهود سوى رغبتهم فى إغراء المتنصرين للارتداد إلى اليهودية . وصدر ملحق لذلك المرسوم ، يجعل الضريبة إلى آخر العام يجب أن تجبى على جميع أملاك اليهود ومبيعاتهم . أما الديون المستحقة على المسيحيين والمسلمين فلا تدفع إلا عند بلوغ سن الرشد ، عن طريق العملاء الذين يستطيع المنفيون العثور عليهم ، أو تحمل هذه المطالب بنخصم لمشتريين مسيحيين . وهكذا انتقلت أموال اليهود فى هذه المدة الإجبارية القصيرة إلى أيدي المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها . فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة من القماش . وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم « أليجمعوا قيمة للتأمين عليها ؟ » وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس . وتحولت مداخل اليهود إلى مراعى . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود الأسبان ، التى كدسوها خلال قرون . وقبل خمسون ألف يهودى تقريبا التنصر ، وسمح لهم بالبقاء ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة . وساعد الصغار الكبار ، وأعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفي الغربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون - من رجال دين ودنيا - المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد . فقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشباعهم بأن الله سيهداهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبراً في البحر كما فعل لآبائهم في القديم . وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا في قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبطل أقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطوهم الذي كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً . ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبلنسية أو برشلونة ، في العالم المسيحي بأسره إلا إيطاليا. الراجبة في استقبالهم بدافع إنساني .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملائمة للمهاجرين . فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود ، وباع بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسي في كنف ملوك لا يضمرون لهم عداوة . ولكن جون الثاني أفزعه عدد اليهود الإسبان - ربما بلغوا ثمانين ألفاً - الذين تدفقوا عليها . ففتحهم مهلة ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون وانتشر منهم إلى المسيحيين . الذين طالبوا بإجلائهم فوراً . فمسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيا لهم سفناً بأجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعاً أو لسيبهم المسامون ويبيعونهم . وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة في البحر أربعة

أشهر ؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم .  
واعتقل قرصان بسكاي إحدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة  
إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميدا و الموت جوعا .  
وبعد أن مات خمسون منهم زودت السلطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم  
بالإبحار إلى إفريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر ، حتى باع جون الثاني بيع الرقيق ،  
أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا في البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة  
عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية .  
ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات  
إغراق أنفسهن وأطفالهن ، على تحمل آلام فراقهم ، ومنحهم خليفة جون واسمه  
مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم ، فقد حرر أولئك الذين  
استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهاء على اليهود ، وأمر  
محاكمه أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال المسيحيين باعتبارها  
حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا في الوقت نفسه ، وهى ابنة  
فرديناند وايزابلا ووريثتهما ، حالما أن يوحد العرشين في فراش واحد ووافق  
المملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفي من البرتغال جميع اليهود غير  
المعمدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين . وخضع مانويل لهذا الشرط ،  
مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين في مملكته أن يتنصروا  
أو يطردوا من البلاد ( ١٤٩٦ ) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت  
التنصر ، وكره أن تباد المهن والصناعات التي تفوق فيها اليهود أمر جميع  
الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة ، أن يفصلوا عن آبائهم وينصروا كرها .  
وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ، ولكنه نفذ . فقد روى  
أحد الأساقفة « لقد رأيت أطفالا كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد  
من شعورهم » . واحتج بعض اليهود على ذلك بواد أطفالهم ثم قتل أنفسهم ،

وأصبح ما نويل شرساً ، فعطل خروج اليهود ، ثم أمرهم بأن ينصروا كرها . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهن ، وقتل كثيرون منهم نفسه في الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان في مصلحتهم ، لأن مانويل منح إذ ذاك ( مايو ١٤٩١ ) جميع المتنصرين كرها إذنا رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحي البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين ، فإذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا ( ١٥٠٦ ) ، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد ، وقتل فيها ألفا يهودى ودفن مئات منهم أحياء . وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السوزة من الغضب ، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشغب . واستتب السلام ، أو كاد ، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان .

وتم خروج اليهود الرهيب من اسبانيا . بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد : فقد بقى المسلمون . ذلك أن غرناطة سقطت ، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية . وانتدب كبير الأساقفة هرناندو تالافيرا ، حاكما على غرناطة . فنفذ الميثاق فى شىء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل . ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتراف للمسيحية . فألح على الملكة ، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين ، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً ( ١٤٩٩ ) يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة اسبانيا . وذهب بنفسه إلى غرناطة ، وتسلط على طلبيرة وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت إليها يده ، وأشرف

على التنصير الإجبارى بالجملة . وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات فى المدينة والولاية ، وسحقت . وخير جميع المسلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى الثانى عشر من فبراير لعام ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه . واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم اسبانيا ، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم ، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا اسبانيا مع آبائهم وسمح للأمرء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقاتهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال . ورحل الألوف ، أما الباقون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين "moriscos" محل اليهود المعمدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديانتهم السابقة وترك اسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ووصف الكاردينال ريشلييه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه « أكبر حدث همجى فى التاريخ » ، بيد أن الراهب بليدا رآه « أجد حادث فى اسبانيا منذ عهد الرسل » . واستطرد قائلا : « الآن أصبحت الوحدة الدينية فى مأمن ، وأوشك عهد من الازدهار أن يزرغ » .

وفقدت اسبانيا كنزاً لا يقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقته من «الناحيتين الاقتصادية والفكرية . ولما لم يعد يعرف الشعب الإسبانى منذ ذاك غير ديانة واحدة ، فقد أذعن تماماً لرجال الدين وتنازل عن كل حق له

في التفكير إلا في حدود العقيدة التقليدية . وآثرت اسبانيا أن تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وسيان كان ذلك لخبرها أو لشرها ، في حين اندفعت أوروبا نحو التقدم العصري بفضل الثورات التجارية والطبوغرافية والفكرية والبرتستانتينية .

## ٧ - الفن الإسباني

لقد عبرت العمارة الإسبانية المتشعبة بالطراز القوطي تعبيراً قوياً عن ذلك الطابع المكين للقرون الوسطى . ولم يسخط الشعب على المرويدات<sup>(١)</sup> التي أعانت ضمير الملوك والنبل على إنفاق المال أو السياسة الدينية ، لبناء الكتدرائيات الضخام كما دفعت إلى الإسراف في الزينة باهظة النفقة والنحت والتصوير الرائعين على القديسين الأثيرين لديهم وعبادة أم الرب بكل مشاعرهم . وأقيمت كتدرائية برشلونة في بطء بين عامي ١٢٩٨ ، ١٤٤٨ : وبين فوضى الطرق الضيقة ترتفع أعمدتها الساحقة وبابها الذي لا مزية له وصحنها المنيف بينما لا تزال أروقته ذوات النوافذ الكثيرة تصلح ملجأ يعتصم الناس فيه من جهاد النهار . ومدت بلنسية وطليطالة وبرجوس وبرغشت ولاردة وطراكونة وسرقسطة وليون أوزينت معابدها التي كانت موجودة من قبل ، بينما أقيمت معابد جديدة في وشقة وبمبلونة التي تعد أروقته من الرخام الأبيض ، ذوات النقش الرشيقي ، تعد في جمال أبهاء الحمراء . وفي عام ١٤٠١ قررت هيئة الكتدرائية في إشبيلية أن تشيد كنيسة تبلغ من العظمة والجمال حداً يجعل الذين يشاهدونها في الأجيال المقبلة يرون أننا مجانين لإقامتها . « فأزال المعمار يون المسجد المتهاك الذي يقوم على المكان المختار لبناء الكنيسة ولكنهم أبقوا على أسسه ، وعلى تخطيطه ومئذنته

---

(١) المرويدات جمع مرويدة ، وهي عملة إسبانية تساوي ربع بنس إنجليزي فإذا

كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ سلنا .

الجيرالدا ، البديعة . وظلوا يضعون حجراً فوق حجر طوال القرن الخامس عشر حتى أكملت إشبيلية تشييد أكبر بناء قوطى فى العالم (١) ، وقال عنها تيوفيل جوتيه : « إن كنيسة نوتردام فى باريس قد تسير منتصبه القامة فى صحنها . » ومع ذلك فإن نوتردام كاملة ، وكتدرائية إشبيلية فسيحة . وعمل سبعة وستون نحائاً وثمانية وثلاثون مصوراً من موريلو إلى جويبا ، على تزيين هذا الكهف العظيم للآلهة .

واقترح المعمارى جويلوموبو فى حوالى عام ١٤١٠ على هيئة كنيسة جيرونا أن يزيل الأعمدة والعقود ، التى تقسم داخلها إلى صحن ممرات ، وأن يوحد الجدران بعقد واحد عرضه ثلاثة وسبعون قدماً . ونفذ ذلك ، وهكذا أصبح لصحن كتدرائية جيرونا أعرض عقد قوطى فى العالم المسيحى . وكانت نصراً للهندسة وهزيمة للفن . وشيدت أضرحة لم تبلغ هذه الضخامة إبان القرن الخامس عشر فى برنزيان ومانريزه واسترقة وبلد الوليد . وتوجت شقوبية عمارتها بتشيد كتدرائية على شكل حصن عام ١٤٧٢ ، وأمت سجيونزا أروقتها المشهورة عام ١٥٠٧ ، وبدأت سلمنقة فى إقامة مزارها الجديد عام ١٥١٣ وترتفع فى كل مدينة كبيرة فى أسبانيا ، ما عدا مدريد ، كتدرائية تبدو من الخارج بنائة ضخمة فى جلال رائع وداخلها يسترحم الشمس بظلامه الدامس ويروع النفس بالتقوى ، ومع ذلك تبدو زاهية بالأوان الناصعة التى يتسم بها فن التصوير الأسبانى ، وبتأثيرها الملونة وبريق الجواهر والفضة والذهب . وهذه هى دور الروح الأسبانى ، الخاضع فى خوف المتكبر فى وحشية .

وعلى الرغم من هذا كله وجد الملوك والنبلاء كما وجدت المدن ،

(١) على مساحة مقدارها ١٢٥ ألف قدم مربع ، وكتدرائية القديس بطرس على مساحة تبلغ ٢٣٠ ألف ، ومساحة مسجد قرطبة ٦٠٠ ألف .

الأموال لتشييد القصور الباهظة . وكان بطرس الغشوم وفرديناند وايزابلا وشارل الخامس يعيدون تشكيل القصر "Alcazar" الذى صممه معمارى مسلم فى إشبيلية عام ١١٨١ ، وقام بمعظم الترميم مسلمون من غرناطة حتى ليبدو البناء أخا ضعيفا للحمراء . ولقد شيد دون بدرو انريكز على طراز إسلامى مشابه ، لأمرأء القلعة "Alcala" فى إشبيلية ( ١٥٠٠ ) قصرأ منيفا ، وهو قصر بيلاطس وكأنما يكرر الدار التى يقال أن بيلاطس ، أسلم من يابه المسيح للصاب ولقد زود ديوان بلنسية ( ١٥٠٠ ) للبلاط المحلى بصالون دوراد وينا فس فى فخامته سالا دل ماجيور كونسيجليو ، فى قصر الدوج فى البندقية .

وكان فن النحت لا يزال خادما للعمارة والعقيدة ، يزحم الكنائس الاسبانية بتماثيل العذراء من المرمر أو المعدن أو الحجر أو الخشب ، وهنا تجد التقوى تتجسم فى أشكال دينية صارخة ، أو زهدية جافية ، يذكها اللون ويضاعف من إثارتها للروع كآبة صحونها . ويفاخر الفن الأسباني خاصة بالحواجز المنقوشة والملونة المقامة خلف منضدة المذبح ، وأنفقت مبالغ طائلة اغتصبت تحت وطأة التهديد بالموت ، لجمع أحذق الصناع - والاحتفاظ بالمصممين والنقاشين والنحاتين والدورادور الذين يذهبون أو يدمشقون<sup>(١)</sup> السطوح والاستوفادور الذين يصبغون الثياب والحلى والانكارنادور الذين يلونون الأجزاء التى تحكى اللحم ، وعمل الجميع معا أو بالتناوب فى الضريح . وخلف المذبح الرئيسى لكثدرائية إشبيلية حاجز يتألف من خمسة وأربعين قسما ( ١٤٨٣ - ١٥١٩ ) - ويصور الأساطير المحبية ، فى تماثيل ملونة أو مذهبة على الطراز القوطى المتأخر ، بينما يعرض حاجز آخر فى كنيسة القديس سانت جيمس فى كثدرائية طليطلة فى خشب شربين مذهب وبواقعية متجهمة سيرة أكبر قديس أسبانيا تمجيدا .

(١) يدمشقون يزخرفون بزخارف دمشقية .

وقد يمثل الأمراء والمطارنة في فن النحت ؛ ولا يكون ذلك إلا على قبورهم التي توضع في الكنائس أو للأديرة التي تعد المداخل إلى الجنة وعلى هذا النحو دفنت دونا منسيا أنريكيز ، دوقة البوكرك في حدث منقور نقرا جميلا ، وهو الآن موجود في متحف الجمعية الأسبانية في نيويورك ، وحفر يابلو أرتيز لكتدرائية طليطلة ، تابوتين فخمين لدون الفاروده لونا وزوجته . وصمم جيل ده سيلوى في دير ميرافلورس الكارثوسى بالقرب من برغشت ، مدفنا فخما على الطراز الإيطالى لوالدى الملكة وأخوتها . وبلغ من ابتهاج إيزابلا بهذه المدافن الشهيرة للرفات الملكية إنها عندما علمت بمصرع وصيفها ، جوان ده باديلا ( الذى كان شجاعاً في استهتار حتى أطلقت عليه « معتوهى » ) بإصابة في رأسه إبان حصار غرناطة ، كلفت ده سيلوى ، أن ينقر مدفنا ملكيا لضم رفاتة ، ونافس جيل مرة أخرى أحسن ما في فن النحت الإيطالى في عصره .

وليس هناك فن أكثر تميزاً من الفن الإسبانى ، ومع ذلك فليس بينها ما أسلم للتأثير الأجنبي بنحسوع مثله . وخضع أول أمره ، بطبيعة الحال ، للتأثير الإسلامى ، الذى استقر طويلا في شبه الجزيرة ، وإن استمد جذوره من العراق وفارس وأدخلت في الطراز الأيبيرى ، دقة في الصناعة ، وكلفا بالزينة فلما تضارع في أى بقعة من بقاع العالم المسيحى . أما في الفنون الصغرى ، حيث يحتل الزخرف المكان الأكبر ، فإن اسبانيا قلدت فيها أساتذتها العرب ولم تتفوق عليهم فيها قط . فترك الخرف بأكمله للمدجنين ، الذين لم يضارعهم في لمعان آثارهم سوى الصينيين ، والذين زادت قراميدهم الملونة - وبنوع أنخص الزلزلى الأزرق - من أمهة الأرضيات والمذابح والنوافير والحدران والسقوف في أسبانيا المسيحية . كما أن الحدق الإسلامى نفسه ، قد جعل المنسوجات الإسبانية من المحمل والحرير والمنحرم - أدق ما في العالم المسيحى من نوعه . وهذا الحدق يبدو مرة أخرى في المصنوعات الجلدية

الاسبانية ، وفي الزخارف الجريية « أرابسك » وفي الحواجز المعدنية وفي أوعية السر المقدس الدينية وفي النقش على الخشب الذي تصنع منه الحواجز خلف المذبح ومقاعد الشماسة والأقبية وتسالت تأثيرات متأخرة من التصوير البيزنطى ثم من فرنسا وبرجنديا والأراضى الواطئة وألمانيا . واستمد النحت والتصوير الاسبانيان واقعيتهما الرائعة من الهولنديين والألمان - وهى الواقعية التى أظهرت رسوم العذراء مخيفة بالتمرد الذى يجعل سنها ملائمة لأن تكون أم المصلوب ، على الرغم من رأى ميشيل انجيلو من أن العذرة التى تبتعث الشباب - ولقد انحسرت جميع هذه التأثيرات إبان القرن السادس عشر أمام انتصار الطراز الإيطالى الذى شمل القارة الأوروبية .

وسار التصوير الاسباني فى تطور مماثل ، ولكنه تقدم ببطء ، وربما كان ذلك لأن المسلمين لم يبذلوا فى هذا المجال معاونة أو توجيها . وكانت الصور الجدارية القطلونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أحظ من حيث التصميم ، من الرسوم على جدران كهف التاميرا التى تعود إلى ما قبل التاريخ فى إسبانيا . ومع ذلك فما جاء عام ١٣٠٠ حتى أصبح التصوير الفتنة التى تأخذ بالألباب فى شبه الجزيرة بأسرها ، وصور ألف فنان صوراً جدارية كثيرة ولوحات ضخمة على المذبح ، وقد بقى بعضها مما يرجع إلى عام ١٣٤٥ مدة طويلة أكثر مما يستحق - وفى عام ١٤٢٨ زار جان فان ايلك ، إسبانيا وأدخل معه تأثيراً فلمنكيا قويا . وأرسل ملك أرجون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، لويس دلو ، ليدرس الفن فى بروجس ، ولما عاد صور لويس صورة مفرقة فى الفلمنكية هى « عذراء مجلس الشورى » . وأخذ المصورون الاسبان منذ ذلك ، وإن ظلوا يفضلون الألوان غير اللامعة ، يغمسون ألوانهم فى الزيت شيئا فشيئا .

وبلغ عصر البدائين فى التصوير الاسباني ، ذروته على يد بارتلومة برميغو ( المتوفى عام ١٤٩٨ ) وقد حضر نفسه اسما فى فترة مبكرة عام ١٤٤٧

بصورته سانتو دومنغو المعلقة في البرادو . أما صورتا : سانتا انجراسيا التي اشتراها متحف جاردنر في بوسطن ، وسانت ماكايل الموجودة في مجموعة ليدى ليدلو ، فإنهما جديرتان برفاثيل ، الذي جاء بعده بجيل من الزمان . ولكن أحسنها جميعها هي صورة بيتا ( ١٤٩٠ ) في كتدرائية برشلونة : وفيها جيروم أصلع على عينيه نظارات ، ومريم سمراء أسبانية تمسك بابنها الكسيح الهزيل الذي لا حياة فيه ، وفي مهاد الصورة أبراج أورشليم تظللها سماء قريبة ، وإلى اليمين صورة جافية للمنعم الكاهن ديسبلا ، غير مرجل الشعر غير حليق اللحية ، يشبه قاطع طريق تائباً محكوما عليه ، ويوحى تصور برميزو المريض الإنسانية . وهنا نجد أن الرشاقة الإيطالية تتحول إلى قوة اسبانية ، وتحتفل الواقعة بانتصارها في الفن الإسباني .

واستمر التأثير الفلمنكي في فرناندو جاليجوس ، وأثمر رائعة مذهلة بـ « فارس من جماعة قلعة رباح » ، صورها ميجويل سيثيوم وهو فلمنكي في حاشية إيزابلا ، وهي من أجمل صور الأشخاص في المعرض القومي . بواشنطن . ولكن التأثير الإيطالي بدأ مرة أخرى عندما عاد بدرو برجوت إلى اسبانيا بعد تمرس طويل في إيطاليا . وهناك درس مع بيرو دلافرنشسكا وميلوزودا فورلي ، وتمثل طريقتهما الهادئة في التظليل . ولما أراد فيديريجو أمير أريينو ، مصورين يزينون قصره ، اختار جستوس فون جنت وبيرو سبانيولو ، ولما توفي الدوق ( ١٥٨٢ ) جلب بدور فن التكليل معه إلى اسبانيا ، ورسم لوحات مذبح مشهورة في طليطلة وأبله والصور المنسوبة إليه في اللوفر والبريرا والرادو ومتحف كليفلند ، فلم تؤيد شهرته الحالية ، أباعتباره فيلاسكين الملوك الكاثوليك ؟ ولكنها تبدو في الرسم والتأليف أعظم من جميع الآثار التي ظهرت في اسبانيا قبلهم .

وأخذت العوامل الأجنبية تتفاعل ببطء مع العبقرية الوطنية لتمهد الطريق لظهور الآثار الفنية الناضجة التي قام بها الونزو كوالو والجريكو في عهد فيليب

الثاني ، وانتصارات فيلاسكيه وزرباران وموريللو في عصر اسبانيا الذهبي إبان القرن السابع عشر . والعبقرية موهبة فردية من القوة والإرادة . ولكتها في الوقت نفسه ميراث اجتماعي للنظام والقدرات تشكلت على الأيام وتمثلها النمو والعبقرية تولد وتصنع في آن واحد .

## ٨ - الأدب الاسباني

وكان على النفوذ الإيطالي في الأدب أن يترتب في الوقت الذي تبادلت فيه أسبانيا التأثير مع فرنسا في القرون الوسطى . وربما أخذ التروبادور في برفانس عن أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، قوالهم وأخيلتهم الشعرية ومع ذلك فقد أرسل جون الأول ملك أرجون وفدا إلى شارل الرابع ملك فرنسا ( ١٣٨٨ ) يطلب مجيء - التروبادور من تولوز إلى برشاونة ، لينشئوا فيها فرعا من فرقهم ، الحكمة المرحة وتحقيق له ذلك وعقدت المطارحات الشعرية في برشاونة وطرطوشة على النهج البروفانسي ، وشغفت الأقلية المتعلمة في أرجون وقشتالة بنظم الشعر وإلقائه . وأنشد منشدون جوالون القصائد الغنائية في الحب أو العقيدة أو - الحرب بمصاحبة آلات وترية بسيطة .

وإذا كان الجيل الثاني فقد أيد جون الثاني ملك قشتالة النماذج الشعرية الإيطالية . وانتشرت في شبه الجزيرة الأيبيرية طرائف النظم الإيطالية وأوزانه عن طزيق نابولي وصقلية ، حيث حكم الإسبان ، وعن طريق جامعة بولونيا ، حيث تعلم الشباب الإسباني مثل آل بورجيا ، ووجد دانتى وبترايك مقلدين لها مشغوفين بهما باللسان القشتالي . وكانت مقطعات الشعراء الإسبان الغنائية تجمع بين وآخر في دواوين الشعر الغنائي *cancioneros* ، وهي أناشيد فروسية العاطفة بتراركية الأسلوب . واستورد ماركيز سنتيلانا - وهو سياسي وباحث وراعية للأدب وشاعر - قالب المقطوعة الغنائية في إيطاليا ، وسرعان ما صنف تاريخا للأدب . وقلد جوان ده مينا ، دانتى

تقليداً صريحاً في ملحمة شعرية ، عنوانها « قصر التيه » وقد فعلت الكثير لتجعل اللغة القشتالية لغة أدبية ، مثلما فعلت الكوميديا الإلهية ، للغة الحديثة التسكانية وسبق دون جوان مانويل في الوقت نفسه بوكاشيو ، في كتابة حكايات درامية اقتبس شكسبير من إحداها الشخصية التي لا يمكن تصديقها لبروشيو في ترويضه النمرة .

وظلت الرومانس تجد لها مدخلا لكل طبقات القراء . وترجمت أماديس ناجولا إلى الإسبانية ( ١٥٠٠ ) على يد جارسا أردونيه ، الذي أكد لقراءه ، أنه استحدث في الأصل البرتغالي تنقيحا كبيراً ، وما دامت هذه الترجمة قد ضاعت فنحن لا نستطيع أن نخالفه . أماديس ابن غير شرعى لأميرة بريطانية خيالية ، وقد أُلقت به أمها في البحر . فألقده فارس اسكتلندي وصار وصيفاً للملكة اسكتلنده . ويترك ليوزيرات ملك إنجلترا ابنته أوريانا التي تبلغ من العمر عشرة أعوام في البلاط الاسكتلندي ، ليخمد ثورة مغتصب الملكة . وتعين الملكة أماديس الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً وصيفاً لأوريانا قائلة « هذا طفل يقوم على خدمتك » . فأجابت إن هذا يسرها . واحتفظ الطفل بهذه الكلمة في قلبه ، على نحو لم تفارقه بعد ذلك قط . . . ولم يكل قط ، طوال أيام حياته من خدمتها . وهكذا بقي حبهما مابقياً ، ولكن أماديس الذي لم يعرف مطلقاً مدى حبهما له ، رأى نفسه جسوراً في أن يحصر أفكاره فيها وقد أدخل في اعتباره عظمتها وجمالها ، ولم يجسر قط ، أن يتفوه بكلمة معها وهي أيضا ، وإن أحبته من قلبها ، حرصت على ألا تكلمه أكثر مما تكلم غيره ، ولكن عينها وجدت الساوى العظيمة في أن تبدى لقلبها أعظم ما تحبه في الدنيا .

ومن المطمئن أن نعلم أن حبهما قد انتصر بزواجهما ، بعد محن بلغت من الكثرة في القصة قبل الزواج ، ما بلغته بعد ذلك في الحياة . وفي هذه الحكاية الطويلة لحظات كثيرة تزخر بالعاطفة وبعضها يتسم بالنبل ، وإذا

كان سرفانتيس ، قد أقسم أن يمحو كل هذا النوع من القصص الخيالي فإنه أبقى هذه باعتبارها أحسنها .

وتعد الرومانس مورداً واحداً من موارد الدراما ، التي انبثقت ببطء من مسرحيات المعجزات والأخلاقيات ، في صورة الهزليات الشعبية ومسرحيات التنكر الخاصة بالبلاط . وأقدم وقت معاوم في تاريخ الدراما الإسبانية هو عام ١٩٤٢ ، عندما ظهرت على المسرح المحاورات الدرامية لجوان دل انسينا وسار فرناندو ده روجاس وهو من المنتصرين خطوة أخرى نحو الدراما بتأليفه *La Celestina* ، « القوادة » ( ١٤٩٩ ) وهي قصة تسرد بطولتها في كل شكل حوار ، وتنقسم إلى اثنين وعشرين فصلاً ، وكانت أطول من أن تمثل على المسرح ، بيد أن تشخيصها الحي وحوارها المشرق قد مهدا للكوميديا الإسبانية الإنسانية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة تعمل على تعويق الدراسات وتشجيعها معاً . بينما فبينما أخذت محكمة التفتيش تراقب الفكر ، فإن صفوة رجال الدين قد عموا الكثير من أجل التربية والتعليم . وجلب الإيطاليون من أمثال بيترو مارتيرو وانجيرا ، الذي جاء إلى إسبانيا عام ١٤٨٧ ، أخبار الحركة الإنسانية ، كما عاد الأسبان الذين تعلموا في إيطاليا بعدوى التحمس لها . واستجاب بيتر مارتيرو لطلب الملكة فافتتح في بلاطها ، كما فعل الكوبن لشرمان قبل ذلك بسبعة قرون ، مدرسة لتعليم الآداب واللغات الكلاسيكية . ودرست الأميرة جوانا اللاتينية في جد ومثابرة قبل أن تصاب بالجنون . وكتب بيتر نفسه التواريخ الأولى للكشوف الجغرافية في أمريكا ، بعنوان « في أمور المحيطات وفي أمور الكرة الأرضية الجديدة » ( ١٥٠٤ ) *De rebus Oceanis et novo orbe* والكلمتان الأخيرتان تسايران استعمال فسبوتشي ( ١٥٠٢ ؟ ) لهما قبل ذلك لتدل على العالم الجديد .

وأسهم الكاردينال اكسيمينيس ، الذي كان إيمانه صارماً حاداً كالصلب في الحركة الكلاسيكية . وقد أسس عام ١٤٩٩ كلية الدوفنسو ، وفي عام

١٥٠٨ جامعة القلعة . وهناك بدأ ، عام ١٥٠٢ ، تسعة من اللغويين تحت إشرافه بأحد الأعمال الكبيرة للنهضة العلمية ، وهو « الكتاب المقدس <sup>(١)</sup> » بعدة لغات « Biblia polyglotta compluti وهو أول نسخة كاملة للكتب المقدسة المسيحية باللغات الأصلية . ولقد أضاف الناشر إلى النص العبري الماسورتي للعهد القديم والنص اليوناني للعهد الجديد ، على عمود متقابل أو تعليق ؛ الترجمة اليونانية وترجمة جيروم لللاتينية وشرحا سريانيا للتوراة . فتح ليو العاشر ، لمعاوني اكسيمينيس ، خزائن مخطوطات الفاتيكان ، ونشر ثلاثة من اليهود المنتصرين علمهم العبري ، وتم تحقيق هذه النصوص عام ١٥١٧ ولكن المجلدات الستة لم تطبع إلا عام ١٥٢٢ . وأحس اكسيمينيس بالوفاة ، فاستحث علماءه . قائلا : « لا تضيعوا وقتا في تنفيذ عملنا المحيد ، وإلا ، فقدتم في خضم حوادث الحياة داعيكم أو قدر على أن أندب فقد أولئك الذين خدماتهم أعظم في نظري من كنوز الدنيا وأمجادها » ، وقدم إليه المجلد الأخير قبل وفاته بأشهر قليلة مع تحيات أصدقائه . وقال لهم إنه لا يوجد بين جميع أعمال إدارته ما هو أحق من هذا بتهنئتهم . وشرع إصدار نصوص أرسطو بالطريقة نفسها ، مع ترجمة لاتينية جديدة لها . ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك .

## ٩ - موت الملك

سبقت ايزابلا وزيرها الناشط في المغامرة الكبرى فقد كانت على الرغم من قساوتها ، امرأة عميقة الإحساس ، احتملت ملات أشد وطأة من الحروب . فقد دفنت أمها عام ١٤٩٦ . ومات من أطفالها العشرة خمسة عند الولادة أو في سن الطفولة ، ومات اثنان آخران في الشباب المبكر .

(١) نسبة إلى كبلوتم ، ومعناها مشر ، وهو الاسم اللاتيني القديم لمدينة القلعة .

وفقدت ابنها الوحيد عام ١٤٩٧ ، وهو أملها الوحيد في وراثة طنينية للعرش ، كما ماتت أحب بناتها عام ١٤٩٨ ، وهي ملكة البرتغال ، التي ربما وجدت شبه الجزيرة توحيدا سلميا لو قدرت لها الحياة . وكابدت وسط هذه الضربات المأساة اليومية وهي تشاهد ابنتها جوانا ، التي كانت وقتذاك واية للعهد ، تفقد عقلها ببطء .

وكانت جوانا قد تزوجت فيليب الجميل ، دوق برجندى وابن الإمبراطور مكسيميليان الأول ( ١٤٦٦ ) وأنجبت منه إمبراطورين مقبلين هما شارل الخامس وفرديناند الأول . وأهلها زوجها فيليب إما لمزاجها المتقلب ، أو لسفاهتها ، واستمر على اتصال بإحدى سيدات بلاطها في بروكسل ، وجزت جوانا شعرها الخلاب فأقسم زوجها ألا يضاجمها - وسمعت ايزابلا بهذا كله . فوقعت مريضة وفي الثاني عشر من أكتوبر عام ١٥٠٤ كتبت وصيتها . بأن يحتفل بجنائزتها أبسط احتفال وأن المال المدخر من هذا الصنيع يجب أن يوزع على الفقراء ، وأن تدفن في دير فرنسيسكاني داخل الحمراء ، وأضافت : ولكن إذا رأى مولاي الملك أن يكون جدته في مكان آخر نصيتي أن ينقل جثمانى إلى جواره ، وأن الاتحاد الذى نعمنا به في هذه الدنيا ، وقد تقتضى رحمة الله أن تتحد معا روحانا مرة أخرى في الآخرة ، ويمثله اتحاد جسمينا فى الثرى » وماتت فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٠٤ ودفنت كما أوصت ، حتى إذا مات فرديناند نقل جثمانها ليدفن إلى جواره فى كندراية غرناطة . وكتب بيتر مارتير « لقد فقدت الدنيا أنبل زينتها ، لا أعرف أحداً من جنسها فى العصور القديمة أو الحديثة ، بجديرة على الإطلاق بأن يوضع اسمها مع هذه المرأة التى لا تضارع » . ( لقد كانت مرجريت ملكة السويد بعيدة عن مجال إدراكه ، كما أن اليزابث ملكة انجلترا كانت كذلك لم تأت بعد ) .

وقد عينت وصية ايزابلا ، فرديناند ليكون نائب ملك على قشتالة.

من أجل فيليب الذي تمثلته الأراضي الواطئة ومن أجل جوانا التي تسرع  
الخطى نحو الاعتصام بالحنون . وكان أمل فرديناند أن يمنع سقوط العرش  
الأسباني في يد آل هابسبرج ، في شخص شارل بن فيليب ، فبادر وهو  
في الثالثة والخمسين إلى الزواج ( ١٥٠٥ ) من جرمين ده فوا ، ابنة أخي  
لويس الثاني عشر ، والبالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولكن الزواج  
ضاعف من سخط النبلاء القشتاليين على مولاهم الأرجوني . وماتت ثمره  
هذا الزواج في سن الطفولة . فطالب فيليب بعرش قشتالة ، ووصل إلى اسبانيا  
ورحب به النبلاء ( ١٥٠٦ ) بينما انسحب فرديناند إلى مقره باعتباره ملكاً  
على أرجون . وبعد ذلك بثلاثة أشهر مات فيليب ، واستعاد فرديناند  
ملك قشتالة باسم ابنته المحبولة . وظلت جوانا لا لوكا ، ملكة من الناحية  
القانونية ، وعاشت إلى عام ١٥٥٥ ، ولم تترك قصرها في تورديزبلاس  
إطلاقاً ، بعد عام ١٥٠٧ ، وكانت تأبى الاغتسال أو ارتداء الثياب ولم  
تكلم يوماً بعد يوم عن النظر من خلال إحدى النوافذ إلى المدافن التي تضم  
رفات الزوج الحائن الذي لم تنقطع عن محبته .

وحكم فرديناند حكماً مطلقاً وهو نائب ملك أكثر مما كان وهو ملك  
فقد تحرر من تأثير إيزابلا اللطف ، وتحولت عناصر الصلابة والانتقام في  
شخصيته إلى التصب الصارم . وكان قد استعاد قبل ذلك روسيلون  
وسردينيا ( ١٤٩٣ ) كما فتح جونزالو أمير قرطبة باسمه نابولي عام  
١٥٠٣ . ونقض ذلك معاهدة وقعها فيليب مع لويس الثاني عشر في ليون  
تقسم مملكة نابولي بين أسبانيا وفرنسا : وأكد فرديناند للعالم بأن فيليب  
تجاوز تعليماته . وأبحر إلى نابولي واستولى بشخصه على عرشها ( ١٥٠٦ )  
وساوره الشك في رغبة جونزالو في العرش لنفسه ! ولما عاد إلى أسبانيا  
( ١٥٠٧ ) أخذ معه القيطان الكبير وأسلمه إلى عزلة عدها معظم أهالي  
أسبانيا إذلالاً لا يستحقه .

وسيطر فرديناند على كل شيء إلا الزمن . وغاضت بناييع الإرادة والنشاط فيه شيئاً فشيئاً . وطالت فترات راحته . وأصابه الإنهاك مبكراً ، فأهمل شئون الحكومة ، وأصبح نافذ الصبر قلقاً ، سيئ الظن إلى حد المرض بأوفى خدامه له . وأضناه الاستسقاء والربو ، وتعذر عليه التنفس في المدن فمّر في يناير عام ١٥١٦ جنوباً إلى الأندلس ، آملاً أن يقضى الشتاء في دريفه الطلق . ولكنه مرض في الطريق ، وأقنع آخر الأمر بأن يتأهب للموت . فعين أكسيمينيس ليكون نائب الملك على قشتالة ، كما عين ابنه غير الشرعي كبير أساقفة سرقسطة ، نائب الملك على أرجون . وبات في الثالث والعشرين من يناير عام ١٥١٦ في السنة الرابعة والستين من عمره ، والثانية والأربعين من حكمه .

ولا غرابة في أن يمتدحه مكياغلي فيقول : كان هنا ملك قام بدور الأمير قبل أن يفكر مؤلفه في كتابته . فقد جعل فرديناند من الدين أداة للسياسة القومية والحربية ، ونمّر وثائقه بعبارات التقوى ولكنه لم يسمح لاعتبارات الأخلاق قط أن تتغلب على مقاصد الضرورة أو الغنم . ولا يستطيع أحد أن يشك في قدرته وكفاءته في الإشراف على الحكومة ، واختياره الفطن لوزرائه وقواده ونجاحه المستمر في الدبلوماسية والاضطهاد والحرب . أما من الناحية الشخصية فلم يكن جشعاً ولا مبدراً ، وكانت شهرته تنزع إلى تحقيق السلطة أكثر من تحقيق الترف ، وكان جشعه من أجل بلاده ، يريد لها موحدة قوية . ولم يؤمن بالديمقراطية ، وتضاءلت في كنفه الحريات المحلية وماتت وكان مقتنعاً بأن النظم الإقليمية القديمة لا يمكن التوسع فيها بنجاح أمة تضم ولايات وعقائد ولغات جد كثيرة . وكان عمله وايزابلا معه أن يحل الملكية محل الفرضي والقوة محل الضعف ومهد الطريق لشارل الخامس أن يحتفظ بالسيادة الملكية على الرغم من فترات غيبته الطويلة ، كما مهد الطريق لفيليب الثاني ليركز الحكومة كلها في رأس واحد

قاصر . وكان آثماً من أجل تحقيق هذه الأغراض بما يعد في زماننا همجية وتعصباً وقسوة غير إنسانية ، ولكن يعد عند معاصريه نصراً مجيداً من أجل المسيح .

وحافظ أكسيمينيس باعتباره نائب الملك بحماسة على حكم العرش المطلق ، ولعله كان بديلاً من الارتداد إلى الانقسام الإقطاعي . وهو وإن كان في الثمانين من عمره ، فقد حكم قشتالة بإرادة صلبة ، وقضى على كل محاولة من الإقطاع أو المجالس البلدية لاستعادة سلطاتها السابقة ، فلما سأله بعض النبلاء بأي حق يمنع امتيازاتهم ، لم يشر إلى وثيقة إسناد المنصب إلى شخصه وإنما أشار إلى المدفعية في فناء قصره . ومع ذلك كانت إرادة السلطة عنده تابعة لإحساسه بالواجب ، لأنه استحث الملك الشاب شارل مراراً على أن يترك فلاندرز وأن يحضر إلى أسبانيا ليتولى ملكها . ولما جاء شارل ( ١٧ سبتمبر ١٥١٧ ) سارع أكسيمينيس شمالاً لاستقباله . ولكن مستشاري شارل الفلمنكيين أيدوا نبلا قشتالة في إعطائه تقريراً ضد إدارة الكاردينال وشخصيته ، حتى أن الملك ، وكان لا يزال قتي غير ناضج في السابعة عشرة من عمره ، إلى أكسيمينيس ورسالة يشكره فيها على خدماته ، مرجئاً مقابلاته مطالباً إياه بأن ينسحب إلى مقره الديني في طليطلة لينعم براحة يستحقها . وبعث بعدها برسالة أخرى يعنى المتزمت العجوز من جميع المناصب السياسية ، وبلغته الرسالتان متأخرتين حتى لا يضاعفا من إذلاله ، فقد مات في الثامن من نوفمبر عام ١٥١٧ بالغا من العمر واحداً وثمانين عاماً . وعجب الناس من أنه على الرغم من صلاحه في الظاهر فقد جمع الثروة الشخصية الضخمة التي خلفتها وصيته إلى جامعة القلعة .

ونخم لإسبانيا عصرًا غنيا بالأعاجيب والأهوال والرجال الأقوياء . ويوحى الأعتاب على هذه الأحداث بأن انتصار التاج على المجالس النيابية والولايات قد أزال الوسيلة التي كانت الشخصية الإسبانية تستطيع بوساطتها أن تعبر وتحافظ

على استغلالها وتنوعها وأن توحيداً قد استتب في مقابل أن يسيطر على اسبانيا جهاز يعمل على قمع الفكر الأصيل في أوليات الأشياء وأواخرها ، وأن إجلاء اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، قد أنقص من القوة البشرية المعاملة في التجارة والصناعة في نفس الوقت الذي تطلب اكتشاف العالم الجديد فيه التوسع والتقدم الاقتصاديين ، وأن تورط أسبانيا المستمر في سياسات وحروب فرنسا وإيطاليا ( ثم فلاندرز وألمانيا وإنجلترا ) وضعت أثقالاً لا تحتمل على كاهل موارد الأمة في المال والرجال ، بدلا من تحويل السياسة والمغامرة نحو تطوير الأمريكيتين ومع ذلك فهذه نظرة خلفية وهي تحكم على اسبانيا في عهد فرديناند وايزابلا باصطلاحات لا يستطيع شعب أوربي في عصرهما فهمها . فقد اضطهدت جميع الفرق الدينية ، اللهم إلا قليلا من المسلمين ومنكري تعميم الأطفال ، المخالفة في الدين ، واستعملت جميع الحكومات ، إيطاليا وفرنسا الكاثوليكيتان وألمانيا وإنجلترا البروتستانتان ، القوة في توحيد العقيدة الدينية ، واستشعرت جميع الدول الظماً إلى ذهب جزائر الهند - الشرقية والغربية - وكلها توسلت بالحرب والدهاء الدبلوماسي لتؤكد بقاءها وتوسع حدودها أو تزيد من ثروتها .

ولم تكن المسيحية عند جميع الأمم المسيحية حكماً بالوسائل وإنما كانت وسائل إلى الحكم ، وكان المسيح أثيراً عند الشعب وميكافلي أثيراً عند الملوك . وقد حضرت الدولة الإنسان من بعض الوجوه ، ولكن من ذا الذي يحضر الدولة ؟ .